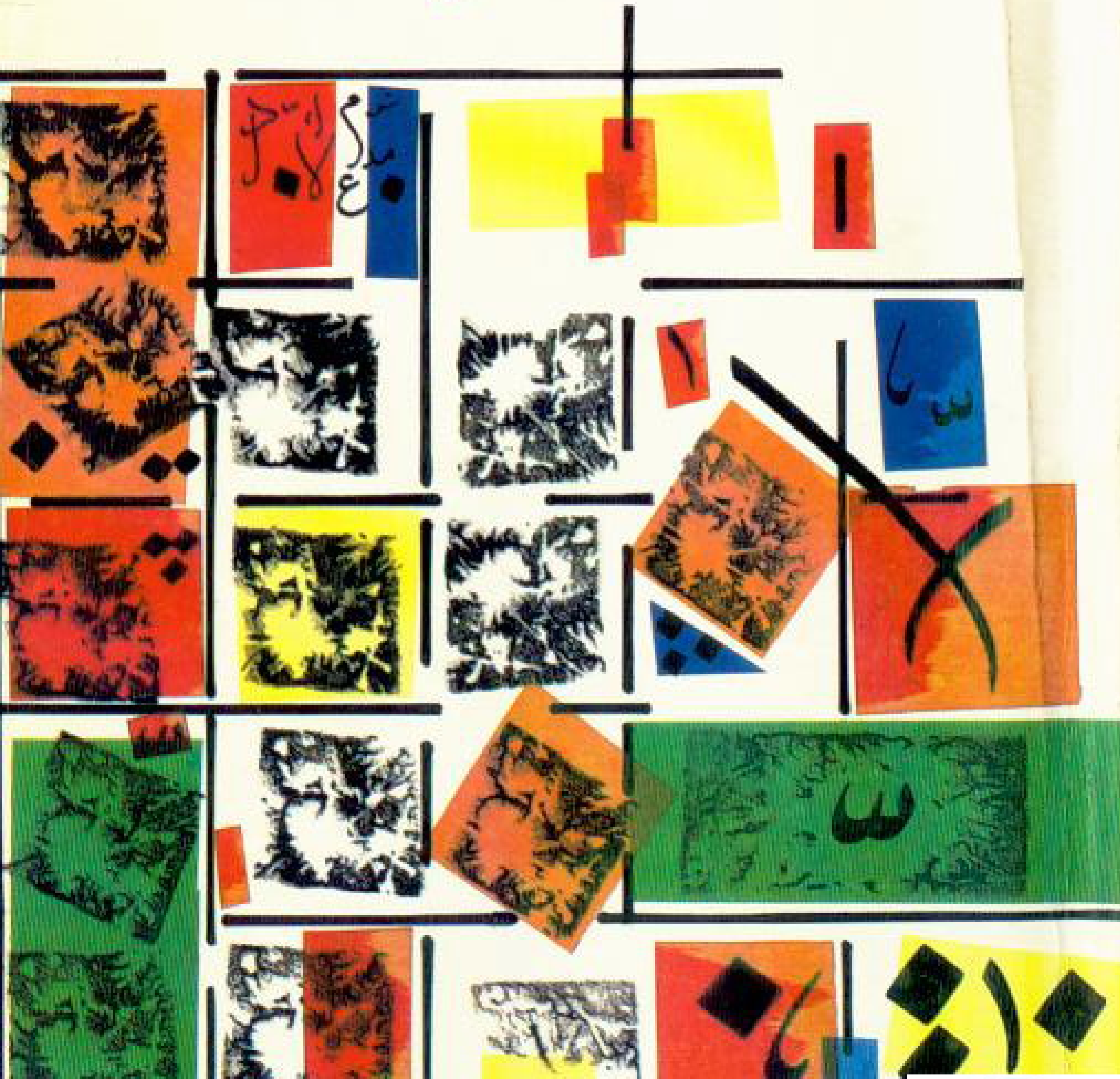
أديب أبي ضاهر

عادات الشعوب وتقاليدها



دار الكاتب العربي
دار الشواف للنشر

أديب أبو ضاهر

عادات الشعوب وتقاليدها

دار الكاتب العربي

دار الشوّاف للنشر

الطبعة الأولى ١٩٩٢م

تمهيد

لكل شعب من شعوب العالم تقاليده وعاداته، تميزه عن باقي الشعوب، وكثيراً ما تكون هذه العادات وليدة حكايات شعبية، او اساطير يتناقلها الاحفاد عن الاجداد، ويتمسكون بها خوفاً من ضياعها في متاهات التقدم والحضارة.

تختلف التقاليد بعضها عن بعض، واذ نجد للموسيقى مميزات خاصة ومشتركة لكافة قبائل وجماعات البيغمي، (لديهم مهارة ومواهب نادرة في التعبير الموسيقي)، لا يمكن ان نجد ذلك عند بقية القبائل، بما في ذلك التشعب في الاصوات والنغمات الشديدة التعقيد.

ولا يقتصر الرقص والموسيقى على الاحتفالات والمناسبات لدى قبائل البيغمي، بل يلعبان دوراً اساسياً في حياتهم اليومية، بالاضافة الى الحكايات والاساطير، التي تشكل ادباً شعبياً شديد الغنى، وعنصراً مهماً من تراثهم الحضاري.

اما اللغة عند قبائل الشمال التايلندي فمزيج من لهجات متعددة، كما ان بعضاً من هذه الجماعات لم يعرف الكتابة مطلقاً، وتقتصر اللغة على التقاليد الشفوية التي تنتقل من جيل الى جيل. ولديهم اسطورة تفسر غياب الكتابة، وهي انّ النصوص القديمة، كانت

مكتوبة على جلود الثيران. وتعرضت هذه القبيلة لغزوات متعددة، وفي احداها أكل الغزاة الجلود، لاعتقادهم انهم يحفظونها، او يستزيدون معرفة من خلال ذلك.

ومن عادات سكان مدغشقر نبش عظام الاموات من القبور، وحملها بعناية، والرقص بها، واقامة الولائم لهذه المناسبة. ويعتقد السكان انّ في هذا اليوم تتلاقى ارواح الموتى بارواح الاحياء، وبالتالي من مغزى هذه الاحتفالات: ان الموت ليس نهاية الانسان.

ويعتقد سكان سيري لانكا ان القمر لايهبط على الارض، لكنّ الناس يتسلقون اليه على ظهور الفيلة. ويقطعون في خلال ساعات قصيرة حوالى ٤٠٠ الف كيلومتر، ويحدث هذا في منتصف شهر "ايزالا" القمري وهو الذي يقع بين آخر تموز (يوليو) واول آب (اغسطس).

وتجدر الاشارة الى انّ هذه الاحتفالات قديمة، ابتدعها في القرن الثامن عشر الملك "كيرتي سري"، ومنذ ذلك الحين تغرق "سيري لانكا". ولمدة ١٥٠ ساعة متواصلة بالغناء ورشّ الزهور.

وللهنود اعياد مثل : عيد الذرة الخضراء، ويعتقدون بالكثير من الخرافات. فهم يحذرون ذكر اسم الهر الوحشي على مسامع اطفالهم، وكذلك ذكر فأرة الحقل، لاعتقادهم ان ذكر واحدة منهما يؤدي الى مرض الاطفال وموتهم.

واهل جزر اولاند يحتفلون كل عام "بيوم البحر" يرقصون ويغنون، وهذه العادة مأخوذة عن اجدادهم، اذ كانت سفنهم تجوب البحار بحثاً عن الصيد الوفير. وكثيراً ما كان البحر يغضب فيبتلع عدداً منهم، وعند الغضب، كان عليهم ان يقدموا له الاشخاص ليهدأ ويرضى.

وتكثر الاساطير والحكايات الشعبية في تايوان، ومنها: ان "التنانين" كانت منذ عهد بعيد تتواثب وهي ترقص وتغني وتقلب في صخب رمال القاع، التي منها اقامت جزيرة على شكل سمكة اسطورية ملونة. لذلك يحتفلون كلّ عام "بيوم التنين".

... بالاضافة الى العادات الكثيرة التي يتحدث عنها هذا الكتاب، كاشفاً الكثير مما خفي عن الناس، محاولاً جمعها خوفاً من ضياعها، بعد كثرة التأويلات في شأنها.

عادات القبائل

قبائل البوندو

تعيش قبائل "البوندو" في ولاية "اوريسا" في جمهورية الهند، التي تمتدّ في الجنوب الغربي، على مسافة ٥٠٠ كيلومتر جنوب مدينة كالكوتا. وتضم ولاية "اوريسا" العدد الاكبر من السكان الذين ينتمون الى القبائل، حيث تعيش حوالى ١٥ قبيلة.

يعتمدون لغة خاصة بهم، تختلف كليا عن اللغات المعتمدة في الهند، اذ ترجع جذورها الى العصور الحجرية. وبالتالي فان لهم عاداتهم الخاصة، المختلفة تمام الاختلاف عن عادات الهنود.

النساء في قبيلة البوندو هن اللواتي يعملن في فلاحة الارض وحصدها، وصناعة الادوات والحلي. ويذهبن الى السوق في اقرب قرية، حيث يجلسن، بعيداً عن النساء الاخريات اللواتي يرتدين الساري، وتتم المقايضة. فتحصل نساء البوندو على النفط والسمك المجفف، مقابل حبوب الفول والارز والبندورة. اما الرجال، فيقفون بعيداً يراقبون.

يستخدم الرجال القوس والفأس في اصطيادهم للثعالب والغزلان. وكانوا اساساً من المحاربين. اما "بوندو" فليس اسم

شعبهم الحقيقي، بل هو "ريمو"، وهم مثل جميع الشعوب الاخرى، يطلقون على انفسهم تسمية تعني في لغتهم "الانسان".

من العار ان يموت الرجل من جراء مرض او حادث، ذلك ان كرامته تفرض عليه ان يلاقي حتفه في خلال معركة. ويتراوح عدد البوندو اليوم بين ٤٥٠٠ و ٥٠٠٠ نسمة، يتوزعون على ثماني قرى.

قرى البوندو منتشرة على مرتفعات "الغات" في ولاية الاوريسا، ويتخلى البوندو مؤقتاً عن اسلحتهم، عندما يغادرون قريتهم ليتوجهوا الى الاسواق. الرجال لا يتميزون كثيراً من ناحية اللباس عن رجال القبائل الاخرى، اما نساء البوندو فيتمتعن بأناقة فريدة، ولباسهن مكوّن اساساً من الزينة والحلي، من الرأس المزين باطواق من الخرز، الى اطواق العنق ذات اللون الفضي.

يمتاز شعب البوندو بالشجاعة، الاستقلالية، حس الحرية والمساواة، الاجتهاد في العمل، المرح، اضافة الى فرادتهم، وهم متفائلون وانفعاليون وخطرون، يعيشون في تجمعات من البيوت المبنية داخل سور. وفيها مكان اسمه "سينديبور"، وهو مخصص للتشاور بين الرجال.(دائرة من الحجارة المسطحة تحت ظل النخيل.)

شهر نيسان (ابريل) مخصص للصيد، ويجوب الصيادون الادغال من دون توقف. وقديماً كانوا يعودون بصيد وفير من الغزلان والضباع والطواويس والفهود. اما اليوم، وبسبب تقلص مساحة الغابة على حساب الاراضي الزراعية، فكثيراً ما يعود البوندو من دون اية طريدة.

يرفض البوندو اية سلطة عليهم، فالمساواة عندهم شيء طبيعي

ان من ناحية السلطة او من ناحية الثروة، وجمع البيوت متشابهة، لكن هناك شخص يدعى "نايكو" وهو بمثابة منسّق واذا كان يترأس احياناً المداولات الصباحية في السينديبور، فلا يعني ذلك انه يستطيع اصدار الاوامر، وفي احسن الحالات، يتمتع النايكو ببعض الاحترام. لذلك فقليلون هم الذين يتجرؤون على مخالفة اوامره.

البوندو من الشعوب الآسيوية، التي لم تتأثر ابداً بالثقافة الهندوسية. متعالون، معتدون بانفسهم، يحتقرون السلطة مهما كان مصدرها.

قبائل الدوغون

يعيش " الدوغون " في مالي، في القسم الجنوبي الغربي من تعرّج مجرى نهر النيجر، ويتحدرون من فرع من "الكيتا"، وينتشرون في منطقة جبلية تعرف باسم صخور "باندياغارا".

يعتقد ان الدوغون اتوا من منطقة "ماندي"، جنوبي غربي جبال باندياغارا. وكانت "ماندي" في خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، مركز امبراطورية "الكيتا"، المعروفة باسم امبراطورية مالي.

تنقسم لغتهم الى اكثر من عشر لهجات، وتصنّف كلغة من لغات الفولتا، بالاضافة الى لغة سرية هي "السيمي سو" والتي تستعمل في الاحتفالات فقط.

منطقة صخور باندياغارا، هي منطقة جافة، وبسبب قصر فصل الامطار، الذي لا يزيد عن اربعة اشهر في السنة، يضطر الدوغون الى حفر احواض صغيرة لجمع المياه تحسباً للفصول الجافة. وتستعمل هذه المياه لري الاراضي الزراعية.

انتاجهم الزراعي يتضمن الذرة والارز والبصل وبعض انواع الخضار، ويربون الخراف.

بيوتهم مبنية من الحجارة، او من اللبن المصنوع باليد. وهي ذات شكل مربع، وتطل الغرف على باحة داخلية. يسكن رب العائلة وكبيرها مع عائلته في بيت كبير، له اكثر من دور، يصعد اليها بواسطه سلم خشبي مصنوع من غصن متفرع. تزين واجهة البيت بثمانين كوة ترمز الى الاسلاف الثمانية الاوائل وسلالتهم.

يبني رب العائلة الى جانب بيته، الاهراءات او خزانات الحبوب ذات السطح المخروطي المغطى بالقش.

على صعيد التنظيم السياسي، يترأس مجلس الشيوخ ويدير الشؤون العامة شخص يدعى "الهوغون"، ولا ترتكز سلطته المعنوية على القوة. وهو بمثابة القاضي، يصدر الاحكام التي تتراوح بين العقاب والنفي المؤبد.

ويتكون مجتمع الدوغون من جماعات متكاملة، منها: المطلعون على الاسرار، الرجال، النساء، الاطفال، المزارعون، والجماعة المنتمية الى الطبقات التي تتكون من جميع الذين لا يزرعون، ولا يعملون في الارض، وهم الصنّاع العاملون في الحديد والخشب والجلد. ويمنع هؤلاء من الزواج من طبقة المزارعين، ويعيشون في احياء خاصة بهم. يتزوجون من بعضهم بعضاً.

قبائل البيغمي:

يشكل البيغمي شعباً افريقياً، يسكن بغالبيته في ادغال افريقيا الوسطى الواسعة. وتعود اولى الدلائل على وجودهم الى نحو العام ٢٤٠٠ قبل الميلاد. ويعيشون ضمن مجموعات تتراوح بين

عشرة وخمسين شخصاً، بحسب غنى منطقة الصيد، التي يعتاشون منها. وهذا ما جعل منهم رحّالة، بالرغم من ان بعضهم اخذ يمارس الزراعة منذ زمن غير بعيد.

ويرى البيغمي في الغابة ارضاً خيّرة، ذات ثروات هائلة تؤمن له كل حاجاته الحيوية. وبسبب تنوّع الموارد الطبيعية، فرضت البداوة نفسها على قوم البيغمي، الذين اعتمدوا الهجرة الموسمية. وبذلك حافظوا على نمط حياة بدائية تعود اشكالها الى العصور الحجرية.

وللموسيقى مميزات خاصة ومشتركة لكافة قبائل وجماعات البيغمي، ولديهم مهارة ومواهب نادرة في التعبير الموسيقي، لا يمكن ايجاده عند بقية القبائل، وهو كناية عن تشعب في الاصوات والنغمات الشديدة التعقيد، والتي تظهر عندما يبدأ شخصان بالغناء معاً، قبل ان تنضم الجماعة بكاملها الى اصوات المغنيين.

تختلف الاغنيات بانواعها وايقاعاتها، ترافقها ايقاعات الطبول التي يستعيرها البيغمي من القرويين عادة، (واحياناً يسرقها) وتبقى من الناحية التقليدية، غريبة عن حضارتهم.

الالات الموسيقية التي يستعملها البيغمي في احتفالاته، تتكوّن من الدعائم الخشبيةالتي تقرع بواسطة قضيبين (مقرعين) ويفترض ان يكونا مصنوعين من الخشب او من المعدن، لكن يبقى التصفيق بالايدي لتعزيز الايقاع، او للبدء بالاغنية او لمرافقتها، الاداة الايقاعية الاكثر تداولاً، ويعلقون على كواحلهم جلاجل تطن على وقع اقدامهم.

لا يقتصر الرقص والموسيقى على الاحتفالات والمناسبات فقط، بل يلعب هذان العاملان دوراً اساسياً في حياتهم اليومية.

بالاضافة الى الحكايات والاساطير، والتي تشكل ادباً شعبياً شديد الغنى، وعنصراً مهماً من تراثهم الحضاري.

يقوم فرد او اكثر برواية الاساطير عن طريق استظهار، او "ترنيم بعض مقاطعها التي يرددها الجميع. ويمثلون بطريقة الايماء الهزلي، المشاهد الاكثر اهمية. وغالباً ما يسبب هذا الايماء او يعزز التأثير الهزلي للحكاية. لاسيما ان شعب البيغمي موهوب جداً في الايمائية والتمثيل بالاشارات الصامتة".

غالباً ما يترافق الرقص والموسيقى مع احتفالات الصيد، حيث تكون اما سابقة لها او لاختتامها. كذلك الامر بالنسبة الى تغيير مكان المخيم. فيتم اختيار البديل بحسب غنى ارضه بالطرائد، وهو اختيار يتم عن طريق احتفالات شديدة الاهمية تدعى "ابومبا" لدى قبائل "البابينغا".

يبدأ الاحتفال بالرقص لمدة يوم كامل حول نار المخيم على وقع الطبول، ملوحين بالخشخيشات، بينما النساء منعزلات ترافقهن بالغناء.

وبعد انتهاء الرقص، يخرج رئيس القبيلة من كوخه، ويبدأ بالرقص على ركبتيه على وقع الطبول، الذي يتسارع باستمرار، يحيط به كل الرجال. ويتقدم راقصاً باتجاه النار، وعند وصوله يمعن نظره بالسنة اللهب، فيستشف صورة المكان حيث تكثر الطرائد، وبالتالي يتم الانتقال الى المكان الجديد

قبائل الشمال التايلندي

قبائل الميوس، الياوو، الكارين والآخا، نزحوا من البلاد المجاورة لتايلندا، من بورما والصين والتيبت، واختاروا العيش

في شمال تايلندا، في الجبال البعيدة عن بانكوك. بيوتهم من الخيزران، يعيشون فيها جماعات تنتمي الى حوالى ست اثنيات مختلفة، ليست لها اية نقاط مشتركة مع الفلاحين التايلنديين الذين يعيشون في الوديان والسهول.

"الميوس" (واسمهم ايضاً الهمونغ) هم مزارعون من الدرجة الاولى، وحرفيون لايضاهون في مهارتهم. اما "الكارين" فيبرعون في تدريب الفيلة "الليزو" ويحبون الاعياد والرقص. "الياوو" هم في الارجح افضل الصيادين في الغابات. ويتوارث "الآخا" القصائد الشعبية شفهياً.

تعيش هذه القبائل على ضفاف نهر الميكونغ، ولم تدخل الكتابة الى حياتهم اليومية بعد، لذلك تراهم يعيشون حياة بدائية، في خيم من الخشب او الخيزران، وسطوحهم من "الالانغ-الانغ" وهي عشبة مفضلة لدى الفيلة. وليس في قراهم مياه جارية ولا كهرباء.

تحمل الام طفلها في جيب كبير على الظهر، ويتكوّن من مربع من القطن الاسود، يسمح للطفل بالحركة، ويحزم الجيب الى ظهر الام بحزامين، وهو مزخرف بتطريزات حادة الالوان، وبكرات قطنية حمراء تتناسب مع تلك التي تزيّن قبعة الطفل.

والام مظهرها ملفت ومؤثر. تلف رأسها بمنديل واسع يبرز وجهها. لا تحني الرأس بسهولة، وهذا عائد الى ان زينة الرأس الثقيلة ترغم المرأة على التزام وضعية شامخة. وحياة النساء اليومية مجردة من اي شكل من اشكال الراحة.

نساء الآخا يلبسن التنورة المزركشة بالمعدن والمذيلة بالشرائط، ولباس الرأس مكوّن من كرات فضية صغيرة، تزينها قطع نقدية مختلفة، وتتخللها حبوب من الخرز الملوّن.

والمرأة المتزوجة في قبيلة الآخا تشك في مؤخرة لباس الرأس المزخرف قرصاً فضياً، وهو علامة خضوعها للزوج وللرجل بشكل عام. يسمى القرص الفضي "لسان المرأة العملاقة". وفي تسميته اسطورة تروى وهي: ان شاباً صادف امرأة عملاقة رهيبة، صارعها وانتصر عليها، فقطع انيابها ولسانها، ووضعه عند مؤخرة الرأس لتنعكس عليه اشعة الشمس حين تنحني النساء للعمل في الحقول.

اللغة عند قبائل الشمال التايلندي مزيج من لهجات متعددة، كما ان بعضاً من هذه الجماعات لم يعرف الكتابة مطلقاً، وتقتصر على التقاليد الشفوية التي تنتقل من جيل الى جيل.

ولدى قبيلة الآخا اسطورة تفسر غياب الكتابة، وهي ان النصوص القديمة كانت مكتوبة على جلود الثيران. وتعرضت هذه القبيلة لغزوات متعددة، وفي احداها اكل الغزاة الجلود، لاعتقادهم انهم يحفظونها، او يستزيدون معرفة من خلال ذلك.

قبائل الميكي

جماعة من الرحل، يعيشون حياة بدائية، هم من سكان مدغشقر. اختاروا منذ ثلاثة قرون الانسحاب من الحياة المدنية، والعودة الى الغابة.

اساطير كثيرة تروى عن حياتهم، ومعيشتهم، وتصفهم واحدة بانهم جماعة من صغار القامة لونهم رمادي. يعيشون في غابة "توليار" شبه الخالية من السكان جنوب غرب مدغشقر. يختفون عن الانظار في النهار، ويظهرون في الليل فقط.

عدوهم الماء فهم لا يشربون ابداً، ويموتون بمجرد ملامستهم لها.

قلائل هم الذين استطاعوا الاقتراب منهم والتحدث اليهم، ومن بينهم البحاثة "لويس مولي"، الذي قام برحلة في "خليج القتلة" في العام ١٩٥٦، واكد انهم ليسوا اقزاماً، وان من الصعب البقاء معهم على قيد الحياة، بسبب عدم وجود الماء.

الرحالة الثاني الذي استطاع ان يكتشف بعض خفايا حياة الميكي، هو "جان ميشيل هورنر" الذي قام برحلته في العام ١٩٧١ اي بعد مرور خمس عشرة سنة على الرحلة الاولى، التي قام بها "مولي".

التقى هورنر بعائلة من قبيلة "الميكي"، وكان له معها حديث سريع حصل من خلاله على معلومات تؤكد: ان الميكي هم الوحيدون في العالم الذين يستطيعون البقاء على قيد الحياة من دون ماء، اذ يقتصر غذاؤهم على بعض انواع معينة من جذور الاشجار، ومن القنافذ والعسل. ينقسمون الى جماعتين مختلفتين: الفيزو، والمازيكورو وهم جماعة من المزارعين.

يقول الرحالة هورنر: "ان ميزتهم في معرفتهم للحياة الحضرية المدنية، لكنهم اختاروا ان يعيشوا كالبدائيين".

يقدر عددهم بحوالى ١٥٠٠ نسمة، بينهم مئة فقط من الرحل الحقيقيين، غير المستقرين.

صحافيان فرنسيان هما ميشيل رفول وجان كلود بتّاتشيني كتبا تحقيقاً واسعاً عن قبيلة الميكي، في مجلة "ريبورتاج" الفرنسية ويرويان في هذا التحقيق، كيف ان الاشواك الناعمة كالابر دخلت في بشرة وجهيهما وفي جسديهما في اثناء بحثهما عن الميكي.

وبينما كانت الحرارة ترتفع، والاغصان كثيفة بشكل ملفت للنظر، خرج اليهم من بين الاغصان رجل عجوز، وقادهما الى حيث تسكن قبائل الميكي.

ظهرت الاكواخ الصغيرة المصنوعة بشكل بسيط وبدائي جداً. الرجال ذهبوا للتفتيش عن جذور "البابو" الغذاء اليومي. وكان المخيم يقوم وسط حقل من الذرة المحروقة.

الرجال الميكي يعيشون كالحيوانات ويختبئون باستمرار. يغيّرون اماكن وجودهم كلّ ثلاثة ايام، وهم لا يلتقون بعائلات اخرى لان الشرط الوحيد للبقاء هو التشتت في الغابة. كي يسهل العثور على الطعام في كل الفصول.

يحفرون الارض ويشعلون النار، وينامون حيث يشعرون بالتعب والنعاس.

ليس لديهم ايّ انتاج، ولم يتعرّف الباحثون الى ثقافة معينة لديهم، كلّ همهم العمل للبقاء على قيد الحياة، واستمرار وجودهم في الغابة.

قبائل الباوبا

كانت الخرافات في الماضي، تتهم قبائل الباوبا بانهم يأكلون لحوم البشر. لكن تلك الايام ولّت، ولم يبق من عادات تلك القبائل الا بعض التقاليد الجماعية البريئة، التي يمارس معظمها في اثناء الاحتفالات والمهرجانات.

اليوم لا يتجرأ الزائر على القيام برحلة في نهر سيبيك الطويل، مخترقاً الادغال الكثيفة، من دون ان تصيبه الرعشة، وهو يتذكر ما قرأه عن تلك البلاد وعن ممارسات قبائلها الوحشية.

"منذ زمن طويل لم اكل لحم البشر"... هذا ما قاله "اوناماتا بييه" عضو البرلمان في باوبا-غينيا الجديدة. واضاف قائلاً: وانني مسرور للامر.

واذا كان عضو البرلمان، امتنع عن اكل اللحم البشري، فان مواطنيه لم يفقدوا بعد الشهية لذلك النوع من اللحوم. وفي احيان كثيرة يختفي بعض الموظفين، الذين كانوا يبعثون الى الغابات والجبال، وعلى ايدي الناس المتوحشين، الذين لم يعرفوا المدنيّة، والذين يسكنون في تلك المناطق، حيث تقوم معارك بالفؤوس والسلال والمدى. وهناك يخطف الاطفال، ويضحّى بهم، وتتوالى الاغتيالات.

هذه الافعال المخيفة تدور رحاها على بعد ١٥٠ كلم فقط من القارة الاوسترالية، وتنشر أخبارها يومياً في الجرائد. وبالاضافة الى هذا، يقرأ الناس في اوستراليا، ان رئيس وزراء تلك المقاطعة، واسمه كوخ فيتها لم"، ينوي طلب الاستقلال والانفصال عن اوستراليا. وهذه المقاطعة التي تدعى "باوبا-نيوغينيا" كانت في يوم من الايام، تابعة للامبراطورية الالمانية.

ومن العادات التي لا تزال سائدة في هذه البلاد، عادات الزواج الذي هو مسألة تجارية، فيها اخذ وعطاء، ومساومة على السعر. واوصى احد مجالس الاقضية بجعل سعر العروس ثابتاً وهو ٢٤٠ دولاراً، يدفع نصفه نقداً بالعملة الورقية، والنصف الثاني بالاصداف البحرية.

وفي المناطق الجبلية النائية سعر العروس هو ٢٤٠ دولاراً، بالاضافة الى خمسة عجول وطائر الكاسواري، وهو طائر اشبه

بالنعامة. وسعر المطلقة او الارملة هو ٣٠ دولاراً. اما المراة المتزوجة اكثر من مرّة، فلا قيمة تجارية لها.

الاجانب الذين يقيمون في باوبا-غينيا الجديدة، يقولون انهم لم يفهموا البلاد بعد، وانه يتوجب على الزائر الا يحاول ان يفهم، بل ينظر ويكوّن انطباعاته عن البلد الجديد، الذي يخرج الى حيز الوجود.

الاشتباكات تقع بصورة دائمة بين القبائل. وفي اكثر من عشرين حرباً وقعت، قتل العشرات وجرح المئات... واسباب هذه الحروب، هي عادة امّا الخلاف على امراة او حيوان، والشرطة قليلاً ما تتدخل، بل تطوّق ميدان المعركة، وتضع على مداخله لافتة تقول: "التقدم اكثر يشكل خطراً. هنا معركة بين القبائل".

الاعتداءات على الاجانب البيض قليلة بصورة عامة. ولكن الخوف موجود في كل المدن. والبيض يتحاشون الخروج ليلاً، والفنادق تنصح النزلاء بعدم الخروج "من اجل مصلحتكم".

المعارك القبلية تعكس اهم الحقائق الاساسية في باوبا-غينيا الجديدة. والانتماء الى قبيلة ما، والتكلم بلغة ما، عادة يشكل تحدياً آخر، ويسبب الاقتتال.

هناك لغات لا يزيد عدد الذين يتكلمون بها، اكثر من مائة شخص. واكبر جماعة لا يزيد عدد افرادها عن خمسين الف نسمة، وغالباً يتحدث سكان الوادي بلغة مختلفة عن سكان جبل مجاور.
ويوجد نظام متّبع لاقتسام الاموال بين القبيلة او الجماعة الواحدة، اسمه نظام "الونتوك"، او نظام الذين يتكلمون لغة واحدة. وبموجب هذا النظام يجب اقتسام الارباح بين جميع افراد القبيلة، اذا دعت الحاجة. مثلاً، اذا كان عامل يتقاضى ١٥ دولاراً

في الاسبوع من عمله، يعطي نصف المبلغ لعضو آخر في عائلته، ويعطي الثاني نصف ما أخذه الى شخص ثالث، وهذا يعطي نصف حصته لرابع، وهكذا دواليك.

واذا غاب شخص عن قبيلته عشرين عاماً، فان قبيلته مسؤولة لدى عودته عن ايجاد مكان له ومساعدته على بناء منزل وانشاء حديقة.

بعض معتقداتهم غريبة، بل وعجيبة. في جزيرة "نيوهانوفر" بدأ افراد قبيلة منذ العام ١٩٦٤ بادخار المال، بعد ان استقر رأي كبار "مفكريها" على شراء الرئيس الاميركي الاسبق ليندون جونسون.
كانت "الفلسفة" الكامنة وراء ذلك هي: "بما ان جونسون هو زعيم قبيلة في العالم، فكل ما عليك ان تفعله لكي تشارك تلك القبيلة ثروتها، هو ان تمتلك زعيمها"

قبيلة التاساداي

قبل العام ١٩٦٧ كانوا مجهولين تماماً. كانوا من عالم ما قبل التاريخ، وحين خرجوا من مغاورهم الموغلة في الاحراج، التي لم يخترقها الانسان، فوجىء بهم العالم، ولعله يفكر بطريقة يفنيهم بها، كما افنى الهنود الحمر، وبعض القبائل القديمة.

لذلك يدخلون التاريخ من بابه الواسع، كنموذج عن الانسان الصافي الطيّب، الذي لم تلوثه الحضارة، ولم يهدده العلم، ولم ينذره التلوث او اخطار التقدم الصناعي.

انهم افراد قبيلة التاساداي التي تعيش في الفيليبين، في جنوب جزيرة "منانار": الكبيرة بين بحر "سليب" و"كيماتو"، اي في

"كوتاباتو". ولعل معظم هذه الاسماء مجهول لدى العالم اجمع، فلا تذكر الا صدفة او في المناسبات.

اكتشفت التاساداي في مناطق تقع تحت حماية مؤسسة "بانامين"، لحماية السكان الاصليين، حيث تعيش في السهول قبائل "البليت" "والاوبوس" من الصيد بالقوس، والزراعات البدائية.

ولم يكن احد يتصور ان قرب تلك السهول، وعلى ارتفاع ١٥٠٠ متر، في غاب يصعب اختراقه، وفي مغاور معلقة على جوانب الجبل الصخري، توجد قبيلة اكثر بدائية من البليت والاوبوس تعيش حياة هانئة وبسيطة. وان تكن حياة قاسية في نظر "المتمدنين".

اكتشفهم صياد من قبائل البليت العام ١٩٦٧. وكان دافال- هذا هو اسم المكتشف التاريخي- اول بشري يراه التاساداي. كانوا يعتقدون انهم وحيدون في العالم، وان حدود الارض لا تمتدّ الى اكثر من غابتهم ومغاورهم.

كان "دافال" يتبع طريدة، فاخترق الغابة. ثم ضلّ طريقه. وفجأة رأى جماعة تشبه اخوانه في القبيلة: كانوا صغار الاجسام، يشبه لون بشرتهم السمرة الحادة، شعرهم املس او قليل التجعد، وجناتهم نافرة. وكانوا عراة الا من ورقة "الاوركيد". اما النساء فيضعن على نصف جسدهن الاسفل "تنورة" من اوراق النخيل.

شعر الجانبان بالخوف، "دافال" والآخرون. وهرب كل باتجاه، صائحاً من الرعب. ولكن الصرخات اشعرت الطرفين ببعض الطمأنينة، لانها متشابهة. ولم تكن لغتهم غريبة تماماً عن لغة قوم دافال "البليت".

وتوصل المحللون بالفعل الى أكتشاف نسب التاساداي: انهم

جماعة انفصلت عن بعضها بعضاً، منذ ستة او ثمانية قرون. ولكن لا احد يعلم متى تمّ الانفصال بالتحديد، ولا سببه، ولا الطريقة التي تم بها.

كما لا يعرف كيف استطاعت قبائل التاساداي ان تدبر امر عيشها، في خلال هذه القرون، وليست لديها اسلحة او ادوات زراعية او منزلية، او حيوانات داجنة او اية بنية اجتماعية. بينما القبائل المشابهة تملك مثل هذه الامور الاولية.

اجريت مقارنة بين لغة التاساداي واللغات الثلاث عشرة المنتشرة في منطقة "مناناو". فوجد ان لغة التاساداي اقرب كل اللهجات الى لغة "البليت". ولكن تنقصها بعض الالفاظ الاساسية: كالأرز والقوس والسهم والملح والحديد وغيرها. لان التاساداي تجهل هذه الاشياء اصلاً.

ويقرر المحققون ان الانفصال تم بين التاساداي والبليت، اثر حرب او داء او فاجعة طبيعية.

ثمة نظريتان متضاربتان: اما ان التاساداي تركوا السهل ليلجأوا الى الجبل، واما ان "البليت" تركوا الجبل ليقيموا في السهل وليتحولوا الى عصر "الحديد والصيد والزراعة وتربية الحيوانات".

على اية حال، حين تفاهم دافال والتاساداي، قدموا اليه باقة من نبات "التانبول". وقدم اليهم سكيناً وقوساً، وحاول ان يعلمهم الصيد.

ولكن فكرة قتل الحيوانات لاكلها، لم تكن مقبولة لديهم. فالحيوانات اصدقاء لهم. كانوا يصطادون السمك، ولكنّهم لم يصطادوا حيواناً يوماً. ولم يأكلون بيض الطيور التي تحيا معهم في مغاورهم.

وحين قيل لهم ان "الكرتيلة" وبعض الحيات سامة، قالوا: "ليس من عادتها ان تؤذي اذا لم يثرها احد. ويمكن القول ان التاساداي يعيشون حياة تشبه الحياة في النعيم. فهم في سلام دائم مع محيطهم.

بدا الامر غريباً جداً في نظر دافال، بعد اقامته اياماً عدة لدى التاساداي. وقد تحدث عن ذلك الى المسؤول من قبل مؤسسة "بانامين"، وجرى الحوار التالي بين الاثنين:

– لماذا اردت ان تعلمهم الصيد ؟

– لانهم كانوا جائعين.

– هل قالوا لك انهم جائعون ؟

– لا، ولكني اعتقدت انهم جائعون. فهم لا يأكلون الا بعض النباتات التي تشبه البطاطا.

– هل احببت هؤلاء القوم حتى قدمت اليهم تلك الادوات ؟ ام انهم اعطوك شيئاً بالمقابل ؟

– اعطوني "التانبول"، وهو افضل نبات في المنطقة.

ومن خلال المعلومات التي وصلت الينا، نعلم ان التاساداي لم يتذوقوا مرة السكر او الملح او الارز او القمح. في عرفهم هذه المأكولات سامة لا تصلح للاكل.

اما اكلتهم المفضلة فهي لحم القرود، وهم يستعينون في صيدها بالادوات التي يصنعونها من الحجارة. ينجرون اغصان الاشجار ويؤلفون منها مصائد يوقعون فريستهم بها. ومن اغصان الاشجار ايضاً يستخرجون العيدان التي ينظفون اسنانهم بها، ليس من اللحم فقط، بل من المادة المطاطية التي يلتذون بعلكها.

لذلك قرر المسؤولون عن "البانامين" ان يراقبوا التاساداي عن

كثب. كان ذلك في السابع من حزيران (يونيو) من العام ١٩٧١، اليوم الذي يعتبر بداية تاريخ التاساداي.

فقد انزلت طائرة الهليكوبتر–الحشرة ذات البطن الكبير، كما وصفها التاساداي–اثنين من العلماء على احدى الاشجار قرب منطقة قبيلة التاساداي. وتمّ التعارف بين العالمين وبينهم، وقام احد رجال قبيلة "البليت" ويعرف اللغة الانكليزية ولغة المنطقة، بالترجمة بين الطرفين. واستمر العمل منذ حزيران (يونيو) من العام ١٩٧١ الى ايار (مايو) من العام ١٩٧٢، واتي بثلاثة باحثين اقاموا مع قبيلة التاساداي على فترات ثلاث.

قال العالمان في تقاريرهما: اكتشاف التاساداي امر غريب، ومفاجأة المفاجآت بالقياس الى التاريخ الحديث. والحق ان عزلة قوم عن التاريخ، وعدم خضوعهم في خلال حقبة طويلة جداً لاي عامل من عوامل التطور او الحضارة، حتى المبنيين على الزراعة او استخدام المعادن، وعدم تبدّل لون حياتهم بالهجرات او بأي عامل آخر، كل ذلك مفاجأة لا مثيل لها في العالم. وستكون دراستهم جد خطيرة بالقياس الى الحضارة، وذات نفع كبير من دون ريب.

ومهما يكن، فان التقرير الذي رفعه كارلوس فرنانديز وفرانك لنش حول قبيلة التاساداي غير كاف. فهو يصف المحيط وتشكيلهم الاجتماعي ونمط حياتهم. ثم يذكر التغيير الذي طرأ بدخول بعض الادوات المعدنية على طريقة عيشهم منذ العام ١٩٦٧.

ويعرض لمسائل البيئة التي تطرحها حياتهم البدائية والوحشية، ومع ذلك فهي كاملة التوازن متلائمة مع حاجات الانسان والطبيعة.

يعيش التاساداي في وادٍ ضيق، كثير التعاريج، على علوّ الف وستمائة متر تقريباً في اقليم رطب وحار، استوائي تكثر فيه

الامطار وترتفع الاشجار الى علوّ خمسين متراً، تنبسط تحتها الطحالب والنباتات المعرّشة والبامبو والموز والبلح.

طبيعة التربة فخارية لزجة معظم الوقت، تنساب منها ينابيع صغيرة تتجمع مياهها في قعر الوادي، لتكوّن نهراً عرضه بين مترين وعشرة امتار. وعلى علوّ مائة وخمسين متراً فوق مستوى النهر، ثلاث مغاور تخفيها الاعشاب والاشجار الصغيرة. ولا تستخدم اثنتان منها الا نادراً: اما الثالثة فتقطنها القبيلة. عرضها عشرة امتار وعمقها عشرة، وارتفاعها سبعة.

وثمّة نار تتقد من دون توقف، تشير الى وجود بشر في تلك المغارة التي لا تنطوي على ادوات مطبخ، او اية اداة اخرى، وليس على جدرانها ايّ رسم او اشارة.

في العام ١٩٧٢ كان عدد التاساداي ٢٥: سبعة رجال، خمس نساء بالغات، ثلاثة عشر طفلاً بينهم احد عشر صبياً وبنتان.

يعيش الجميع حياة الفة، وسعادة في المغارة. وليس لهم رئيس ولا اي نظام او مؤسسة اجتماعية ظاهرة. يتوزعون العمل حسب الامكانات، على رقعة من الارض صغيرة. اما في ساعات الراحة، فيتجمعون حول النار، فاذا حان النوم تكدّس بعضهم الى جنب بعض.

يقتسم التاساداي كل شيء. وتعتبر الخلية العائلية اساساً في هذه الجماعة، ولاطلاق ولا هجر. ويتساوى الرجال في كلّ شيء. وبين الجماعة زوجان معمران هما كولاتاو وسيكل. ولهما ثلاثة اطفال ووليدين.

ومن عادات هذه القبيلة الصغيرة، ان الذكور وحدهم يبقون في الجماعة. اما الاناث فلا. يتزوج الرجال من فتيات من مجموعات

ثانية هي "التاسافانج والساندوكا". ولكن الباحثين لم يكتشفوا مكان وجودها حتى اليوم.

الغريب ان قبيلة التاساداي لا تعرف على وجه التحديد موقع تلك المجموعات. اما تبادل الفتيات فيتم غالباً في لقاءات تحدث صدفة. وهذا ما يحيّر الباحثين الذين يعتقدون ان المجموعات الاخرى يجب الا تكون بعيدة عن موقع التاساداي، ومع ذلك لم يعثروا على اثر لها منذ بدأوا البحث.

ويبدو ان مهمة الخلية العائلية هي لضرورة الانجاب. ولكن الباحثين لا يعرفون شيئاً عن الحياة العائلية لقبيلة التاساداي، باستثناء ان النساء ترضع اطفالها حتى الثالثة او الرابعة من العمر، مما يحول دون عمل النساء في هذه الفترة.

اما تربية الاطفال وحمايتهم فمن مهمات المجموع. ويعمل الاطفال بعد ان يكبروا قليلاً مع المجموعة من دون تمييز. وتجهل المجموعة فكرة "التملك" اصلاً. ولذلك لا يتم توزيع العمل على اساسها.

حين حصلت المجموعة على بعض الادوات لم تتبدل العلاقات بينهم، ولا طريقة العمل. حتى الادوات لا تخص اشخاصاً من دون اخرين، انها ملك الجماعة. فمن احتاج اليها استخدمها، وقد يتركها في المكان نفسه الذي استخدمها فيه.

ولما كانت الجماعة من دون رئيس، فان توزيع المهام يتمّ على نحو عفوي، وحسب الكفاءات والقوى. فالاطفال يصطادون الضفادع والاسماك الصغيرة، وتجني النساء الثمار، ويقطع الرجال شجر البلح.

ويمكن القول ان هذا التعاون له فلسفة خاصة واعية. ويقول التاساداي: "علمنا القدماء ان اجمل ما في الوجود العيش معاً في

الغابة، غير بعيد عن المغارة، ثم العناية بالاشجار".

ان استخدامهم المحيط الذي يعيشون فيه من دون هدر، يسمح لهم بالعيش من دون جهد كبير، ومن دون حاجة الى التنقل. وهم يجهلون الزراعة وتربية الحيوانات والبناء، لكنّهم يجيدون "ادارة" الطبيعة، فيستغلونها ولا يبالغون في استغلالها. مما يتيح لهم ان يحيوا مقتصدين مما يجنونه على مساحة ضيقة. فلا يأخذ البحث عن طعامهم اكثر من ثلاث ساعات يومياً، وهو عملهم الوحيد على كلّ حال. اما باقي وقتهم فيقضونه في اللعب والاحلام، او الاكل او النوم.

يعملون صباحاً، فيذهب الرجال الى شجر البلح. وتمضي النساء الى جني الثمار. اما الشيوخ والاطفال فهم احرار في البقاء قرب النار، او مرافقة الكبار.

وليس ثمّة برنامج لجني الثمار، او البحث عن الطعام. هم على كل حال يجنون ما يجدون في طريقهم، ويستهلكونه حيث يجدونه، او يحملونه معهم في سلاسل من "الناف-ناف". ويجمعون في الوقت نفسه الحطب للنار. وينتهي العمل قبل الظهر غالباً. ويعود الجميع الى المغارة. وتقوم النساء بطهي الطعام على الجمر، او في جذع البامبو.

المغارة بعد الظهر هادئة. النساء يمشطن بعضهن بعضاً بساق البامبو، والرجال يتحدثون. امّا الاطفال فيلعبون معلقين بحبال النبات تماماً كالقرود. ولا يبتعد احد عن باب المغارة. ويتعشى الجميع مما بقي من الغداء، ثم توقد النار جيداً، وينام الجميع مع غروب الشمس. ولا يختلف اليوم عن الذي يليه او سبقه. ولا يحتفظ التاساداي بمؤونة، وليست لديهم اوان لحفظها. ولا يحسبون للمستقبل اي حساب.

ويبدو ان التاساداي لا يعنون بالروزنامة اطلاقاً. فثمة عملان اساسيان:"استغلال الطبيعة من دون هدر، والحفاظ على العزلة المطلقة في ظل المغارة".

استمرت هذه العزلة قرابة ثمانمائة سنة، فكسرها "دافال" في العام ١٩٦٧ "والبانامين" في العام ١٩٧٢. ولئن كان دخول الادوات المعدنية على حياة قبيلة التاساداي قد سهل سبل عيشهم، الا انه لم يبدّل شيئاً من منهجهم في العيش، وقد رفضوا كل ما يمكن ان يقلب نظام حياتهم. فهم بالرغم من الادوات المعدنية، لم يرضوا بالزراعة او البناء.

وعبر التاساداي في خلال ثلاث سنوات من العصر الحجري، الى العصر الحديدي، من دون ان تنقلب حياتهم، لان دور الادوات ضئيل جداً في الحصول على طعامهم، ولا قيمة للاداة في حياة انسان، لا يحرث الارض ولا يصنع ولا يبني.

ظل التاساداي حتى مجيء دافال يأكلون الاطعمة نفسها، ومعظمها من النبات والثمر والاسماك. ولم يستخدموا من الادوات الا نوعاً من المغرز، ينقبون به الارض للبحث عن النباتات الدرنية كالبطاطا، ويقطعون بالفراعة بها الاغصان ليصنعوا منها المغارز. وفراعتهم على كلّ حال من الحجر، ولا تشبه اية من تلك التي عثر عليها في الفيليبين. فهي بدائية وغير مصقولة، وتؤخذ عادة من حجر يرمى على صخرة فينكسر، وتستخدم احدى قطعه لتكون فراعة، اذ يربط الى عود بواسطة الياف من الشجر. ولا تستغرق العملية كلّها اكثر من ربع ساعة.

وقد يلقى بالفراعة بعد الانتهاء من العمل. كذلك حال الادوات الاخرى كالمطرقة وغيرها. ولكن الفراعة الحديدية حلت محل الحجرية منذ العام ١٩٦٧.

حمل دافال بين العام ١٩٦٧ و ١٩٧١ الى التاساداي خمس اقواس وثلاثين سهماً، وخمس قطع قماش وكيساً وسلتين وفراعتين وسكيناً، وابرة وخيطاً من النحاس طوله متران لصنع الاقراط، وعلّمهم كيف يستخدمون هذه الادوات.

كان ردّ فعل التاساداي على هذه الادوات اختيارياً، اي انهم اختاروا منها ما يلائم طريقة عيشهم، فتبنوا الفراعة الحديدية، وقاد ذلك الى اختفاء الفراعة الحجرية من حياتهم. ذلك ان الحديدية تسهل عملهم، وتساعد على قطع اشجار البلح بسرعة ليستخرجوا قلبها، فيصنعون منه حلوى تشكل طعامهم الرئيسي.
كما انهم تعلّموا من دافال صنع الفخ لصيد القرود، ولكنهم حرصوا على طعامهم وعلى صيد الاسماك.

لا تفسير لهذه البادرة، الا ان التاساداي بفطرتهم التي لا يملكها المتمدن، عمدوا الى هذا الاختيار بين الادوات، بما لا يقلب شكل حياتهم وانسجامهم.

تقتصر بيئة التاساداي على المغارة والغاب والنهر وما يحيط به. ويعيشون في "ارض خضراء" كما يحلو لبعضهم ان يصفها، وهم يتحاشون الحيّات، ولكن كلّ ما حولهم في تلاؤم وانسجام عجيبين. وتتحالف الورود والاشواك كما يتحالف الانسان والحيوان.

ويمكن القول ان حياة التاساداي غير قائمة على الغابة، "فمحصولهم" غير متوفر فيها. انها قائمة على النهر وما يحيط به. فيه حيوانات مائية كثيرة، اهمها لديهم الضفادع التي يزيد طولها احياناً على عشرين سنتيمتراً. كما يصطادون السمك باليد، ومتى استخرجت السمكة ضربت على رأسها والقيت على الارض.

من اجود الطعام لديهم قلب شجر البلح، وهو يؤكل نيأ او مشوياً او مقلياً في جذع البامبو. وله طعم الارضي شوكي. امّا ما يجنيه التاساداي من الغابة فهو الثمار والعسل والفطر. تساعدهم الفراعة على شقّ طريقهم في الدغل، ولا يبتعدون كثيراً، خوفاً من الضياع.
اذا قطعوا شجرة من البلح، او ما يشبهها، شقوها الى اقسام ودحرجوها باتجاه النهر، وهناك تشق الاقسام عن البابها وتغسل.
مساحة الارض التي يعيش عليها التاساداي لا تتجاوز ٢٥ كيلومتراً مربعاً، بمعدّل كلم مربع للشخص الواحد.

وبالرغم من ان عدد التاساداي مستقر تقريباً، فمن يموت يعادل من يولد تقريباً. ويتوقع الباحثون ان يتزايد العدد وان ببطء. وعندئذ سيوسع التاساداي رقعة الارض التي يجنون منها طعامهم، او ان ينفصل بعضهم فيعيش في رقعة ثانية، ربما ليحرصوا على الانسجام بين مساحة الارض وعدد السكان.

ولا بدّ ان يضاف الى عناصر الانسجام في حياة التاساداي "ارتفاع مستوى معيشتهم". فهم يأكلون جيداً، وينامون جيداً، ويعملون قليلاً، وليسوا في حاجة الى الابتعاد عن مسكنهم.

ويمكن القول ان التاساداي يشكلون "مجتمع الراحة الدائمة" فلا توقعات ولا ادّخار، ولا مؤونة، اذ لا معنى لذلك كله في حياتهم. الحاضر والمستقبل في وجودهم واحد. ولا يستطيعون تصوّر مستقبل بعيد، كما لا يقوون على تذكر احداث مضت منذ خمس او ست سنوات.
وحتى الآن لم يعرف لقبيلة التاساداي غناء او رسم او نحت، وليست لهم احتفالات خاصة ولا اعياد. ولا يعلم احد ما يفعلون بموتاهم.
وقد تكشف الابحاث الجارية عن تقاليد فولكلورية غنية ما يزالون

يخفونها عن الآخرين. او يقبل الباحثون بالحقيقة التالية: وهي ان اسعد شعب في العالم – اي التاساداي – ليس له من الذكاء اكثر من حيوان متخلف.

ومع ذلك تكمن وراء لامبالاتهم وحياتهم قاعدة فطرية، تكاد تكون فلسفة خاصة بهم، تسمح لهم بالعيش في اقل جهد، ومن دون ان يصيبهم ضيق. انهم يقبلون "وتيرات" الطبيعة، وتفرض الا يتناولوا الا ما يحتاجون اليه من دون تخمة.

قبيلة كاراماجونغ

قبيلة "كارماجونغ" هو اسم افقر قبيلة، بين مجموعة القبائل الكبيرة في اوغندا واكثرها بدائية. وتعيش هذه القبيلة في اراض رملية فقيرة تبلغ مساحتها اربعة آلاف ميل مربع في الشمال الشرقي النائي.

يبلغ عدد افرادها ٢٨٠ الف نسمة، واعضاء القبيلة لا يكادون يعرفون من الادوات الا رماحهم ذات الانصال الفولاذية، ولا يكادون يعيشون على اكثر من الحليب، ولا ثروة لديهم غير قطعان ماشيتهم العطشانة.

لذلك سيطر حزن شديد على ابناء قبيلة "كاراماجونغ"، عندما ادركوا ان الشيء الوحيد الذي يقلق الحكومة في العاصمة البعيدة كامبالا، كونهم لا يرتدون اية ثياب.

فنساء قبيلة "كاراماجونغ" قد يتزين بوزرة قصيرة الشكل، او بقطعة جلد، لكن الرجال لا يتحملون اي شيء اكثر من خلخال واقراط حلق وبضعة عقود نحاسية.

هذه الثياب المختصرة اقلقت رئيس الجمهورية، الذي اصدر

مرسوماً يأمر به رجال القبيلة، بوجوب ارتداء القمصان والسراويل وانتعال الاحذية.

صعق ابناء القبيلة لهذا الامر واعتبروه عملاً قمعياً، وحاول شيوخ القرى ان يقرأوا علناً اعلان رئيس الجمهورية، لكن كلماتهم ضاعت وسط صراخ رجال القبائل الساخطين.

وكان على رئيس الجمهورية، ان يتجول شخصياً في المقاطعة ليتكلم على محاسن وفضائل السراويل. واقتنع بعض رجال القبائل بنداءاته، ولكن وباء كوليرا انتشر بعد ذلك ببضعة ايام، مؤكداً ظناً قبلياً قديما، يقول ان كل ما تفعله الثياب هو انها تخبيء المرض.

قبائل البلوش

البلوش شعب قبلي يعيش في منطقة بلوشستان، التي تقع بالقرب من ايران، وهي اليوم موزعة بين ثلاث دول: باكستان، افغانستان، وايران، ولكن القسم الاكبر منها يقع في باكستان.

البلوش خليط من شعوب مختلفة، اهمها الرند واللاشارا اما الباثان فهم شعب غير بلوشي ولكنه يسكن ايضاً بلوشستان.

لقبائل تلك المنطقة عادات وتقاليد عريقة متوارثة، والبلوشي شديد الحرص على تعليم ابنه منذ طفولته، احترام تلك التقاليد والتمسك بها.

"البلوجميار"، اي مجموعة التقاليد والاعراف غير المكتوبة، ذات الاركان التسعة وقوامها: الثأر والكرم، والسماح والشرف، ومساعدة الضعيف، والثقة والابقاء على الوعد، والتوبيخ عند الخطأ.

وهناك الكثير من الاشعار التي تتحدث عن تعلق البلوشي بشرفه وكرامته، ويضحي للحفاظ عليهما

كانت التقاليد والعادات الصارمة قد سببت للبلوش منذ زمن بعيد حروباً عديدة، وجرّتهم لنزاعات قبلية لا تنتهي. ومن اهمها: حرب اهلية دامية جرت في القرن السادس عشر، ودامت ٣٠ عاماً، جرّت على القبائل المتناحرة الويلات.

الغجر... وعاداتهم

من هم الغجر؟ من اين يأتون؟ الى اين يرحلون؟

عالم اشبه بالاساطير، ظن البعض انّ ولوجه محرّم. واعتبر كثيرون انه وقف على اصحابه، لا يعرف اسراره سواهم.

يطوون هذه الاسرار بين خباياهم، في الشتاء يغرقونها في السواحل، وفي الصيف ينقلونها معهم الى اعالي الجبال. الرجال والنساء يعملون، كلّ له عمله الخاص به.

منذ امد بعيد والمحاولات جارية للكشف عن سرّ تلك الجماعات التي تملك في كل بلد مكاناً. والتي تعيش مع الحضارة وعلى هامشها في آن معاً. دويلات داخل الدول، لها كل المقومات الاّ مقومات الارض والحدود.

مئات الكتب خصصت للحديث عنهم، وجميع الوسائل استخدمت لخرق اسرار اصلهم، وفك رموز رحيلهم الدائم، وتسلسل اختلاط قبائلهم. بيد ان سرّ الغجر ما يزال غامضاً، وشعبهم ما زال اكثر الشعوب مدعاة الى الدهشة في تاريخ البشرية. ذلك انّهم آخر من يمدّ يد العون لعلماء التاريخ، الذين ينكبّون على دراسة اصلهم، فيخرجون باستنتاجات متناقضة،

وبلمحات من الحقيقة التاريخية ممزوجة بحكايات واساطير، لا يعرف مدى ارتباطها بالوقائع التاريخية وتضخيمها لها.

يعيش الغجر في اوروبا في رحيل بطيء، ولأنهم رُحّل يبتعد الناس عنهم ويخافونهم. فالناس لا يحبذون ان يتصرف الآخرون على غير شاكلتهم. وهذا ما دفع بالاوروبيين لان ينظروا الى الغجر على غير حقيقتهم، ويحمّلونهم بعض ما لا يطيقون حمله من الاوزار. اتهموهم بسرقة الاطفال. والواقع ان هذه التهمة لا تمت الى الحقيقة بصلة، اذ درج الغجر على التقاط الاولاد المنبوذين، فسارع الناس الى صبغ هذه العادة بنوايا سوداء، وقالوا ان الغجر انما يلتقطون الاطفال لتشغيلهم فيما بعد.

قام بعض المؤرخين باجراء دراسات حول الغجر، ومن خلال استنتاجاتهم تبين لديهم ان تاريخ هذه القبائل يعود الى اصول البشرية تقريباً، ايّ الى ما قبل ثلاثة آلاف سنة من التاريخ القديم. فقد تجمعت آنذاك على شواطىء الهندوس قبيلة من الجنس الابيض، يتقن افرادها صنع المعادن، ويعرفون اسرار البرونز. تلك الاسرار التي اطلعوا عليها شعوباً اخرى، عندما حان موعد الهجرة الكبرى.

بدأت هذه الهجرة حوالى سنة الف ق.م، فانطلق الغجر من الهند، وتوجهوا نحو آسيا الصغرى. ومن هناك تفرقوا الى مجموعتين كبيرتين، انقسمتا الى فروع متعددة.

اتجهت قافلة نحو جزيرة كريت وبلاد البلقان. وتقدمت اخرى نحو مصر وافريقيا الشمالية لتصل اخيراً الى اسبانيا. وتفرع عنها قسم اجتاز شبه الجزيرة الايطالية، وعبر منها الى سويسرا وفرنسا والمانيا وبلجيكا، ومن هناك الى انكلترا.

ومن الفرعين الاساسيين، انطلقت فروع في اتجاهات عدة، فبلغت اوروبا الشمالية والدانمارك والسويد.

اكتشف المؤرخون ان الغجر زرعوا اولى بذور الحضارة في كلّ مكان اجتازوه، منذ ازمنة ما قبل التاريخ. حتى ان هوميروس اطلق عليهم اسم "شعب النجمة". وقد اسس بعضهم، بقيادة زعمائهم بلداناً كالبانيا، التي تأخذ اسمها من كلمة "ألبا" اي ابيض. وكانت كلمة ابيض تطلق على الرؤساء بصفة خاصة، وتطلق بصفة عامة على الشعب الغازي المنتصر، بينما تطلق كلمة "اسود" على الشعوب المغلوبة على امرها.

وكان من شيوع استعمال كلمة ابيض عند الغجر، ما حمل المؤرخين على اتخاذها بمثابة مؤشر لتتبع آثار هجراتهم حتى اقدم الازمنة. فكانت لهم عوناً اكيداً. لان تراث هذا الشعب الرحال، تراث شفهي كلّه، ينتقل من الام الى ابنتها. ولا يمكن معرفة شيء عنه، سوى ما يقبل الغجر بكشفه.

اسفرت البحوث عن ان الغجر هاجروا حوالى سنة ٥٠٠ ق.م الى اسبانيا، مروراً بالمغرب، وصادفوا الكثير من الاضطهاد في شبه الجزيرة "الايبيرية". واطلق عليهم اسم "السود". اما في قشتيلية فقد اطلق عليهم لقب "خيتانوس" اي الاشرار.

ولكن حين يطلب الباحث الحقيقة من افواه اصحابها، يجد ان الاساطير تختلط لديه بالوقائع التاريخية. فالغجر يتقنون رواية القصص، ويزينون بالحكايات الخارقة اطول السهرات... وهم يؤكدون انه من الطبيعي جداً ان يرى الغجر المستقبل باكثر وضوح من سائر الشعوب، لانهم شعب مختار، ويؤكدون مقولة عمرها نصف قرن تقول ان الغجر، حين تحين ساعتهم،

وينتهي الناس البلهاء من افناء بعضهم بعضاً، باطلاقهم قوى عشواء، ينزلون من جبال تيبت، ويصبحون ينبوع حياة جديدة على الارض.

ويطلق الغجر على انفسهم القاباً مختلفة، كاولاد الطرقات، وشهود الزمان، وابناء الرياح لأنهم لا يركنون ابداً الى مكان ثابت.

ان من يستقصي اخبار الغجر، يتضح له انهم قد انتظموا منذ امد بعيد في طبقات اجتماعية تختلف عاداتها وطرق حياتها. انهم يصنفون الى مجموعتين رئيسيتين: المانوش والروم.

يشكل المانوش قاعدة الهرم الاجتماعي عند الغجر. ويتكلمون لغة، تقربها من الالمانية نقاط تشابه عديدة. ويكثر من بينهم الموسيقيون وعازفو الكمان والغيتار.

اما الروم فينقسمون الى ثلاث فئات، او طبقات اجتماعية: اللوارا والتشوراترا والكالديراش.

يحتل اللوارا مبدئياً قمة الهرم الاجتماعي. ومن وظائفهم الرئيسة نقل اسرار الاجداد من الام الى ابنتها، وكذلك القوانين التي تسير عليها قبائل الغجر منذ فجر التاريخ. وكانت هذه الفئة تحصل على قوتها من الاتجار بالخيل، ثم ما لبثت ان تحولت ببطء الى الاتجار بالسيارات المستعملة. وهي تتواجد بكثرة في المانيا الغربية وهولندا وبلجيكا وفرنسا.

ليس من نقاط تشابه بين اللوارا والتشوراترا سوى تجارة الخيل. وفيما عدا ذلك، فان اعضاء هذه الفئة يفضلون المشاجرات على الكمان والغيتار، ويحبون التنقل اكثر من جميع اقرانهم، حتى انهم نادراً ما يبقون في مكان واحد اكثر من ساعات معدودة.

اما الكالديراش، فهم اقل القبائل تنقلاً، حتى ليعتبرهم البعض شبه حضر. ومن عادتهم ان يقيموا في ضواحي المدن ويمارسوا فيها حرفهم اليدوية لبعض الوقت. ثم لا يلبث الحنين الى الرحيل ان يحملهم على شدّ رحالهم، لانهم هم ايضاً من "ابناء الرياح".

الجدير بالذكر ان للغجر، من حيث اتوا، والى اية طبقة اجتماعية انتموا، لغة مشتركة اسهمت كثيراً في الحفاظ على وحدة عميقة بين صفوفهم.

يقيمون عليهم رئيساً، يمكن تمييزه بوضوح من عصاه والازرار المذهبة على سترته. وهذا الرئيس يمارس سلطة قريبة من السلطة المطلقة، كما أنه يطلق الاحكام القضائية، ولا استئناف لحكمه.

وفضلاً عن ذلك، فانه هو الذي يبارك الزواج، وفقاً لعادات قديمة، تقوم على تقديم الخبز والملح للخطيبين، ومبادرتهما بالصيغة التالية: "عندما لا يبقى لهذا الخبز وهذا الملح ايّ طعم في فمكما، تكونان قد مللتما واحدكما الآخر" ثم يجرح معصمي الرجل والمرأة ويمزج دماءهما.

ومما يذكر انّه قد تردد الحديث في الستينات عن انشاء دولة مستقلة للغجر، وقد تدخلت هيئة الامم المتحدة في الموضوع... ولكن لم يسفر عن اية نتيجة. والسبب الذي اعطي عن ذلك، هو انّ عشرات الالوف من الغجر عارضوا هذا المشروع.

لماذا عارض هؤلاء؟

يبدو ان الاجابة عن هذا السؤال تعدّ من الاسرار التي يحتفظ بها الغجر بشدة. ولكن ما يعرف بالتأكيد، هو ان الغجر، يعتبرون انفسهم: "ابناء الرياح... الشعب المختار".

يقول مثل غجري: "اذا قطّعت غجرياً الى عشرة اقسام، فلا تظنن انّك قتلته. وانما انت في الحقيقة قد صنعت منه عشرة غجريين".

رقصة العظام في مدغشقر

في مدغشقر تقاليد وعادات غريبة للغاية. من بين هذه التقاليد نبش عظام الاموات من القبور، وحملها بعناية، والرقص بها، واقامة الولائم بهذه المناسبة.

ويقوم اقرباء الموتى الذين اخرجت عظامهم من القبور، بالتحدث مع العظام. يسألونها عما حدث لها منذ ان توفي صاحبها.

يعتقد سكان مدغشقر ان في هذا اليوم تتلاقى ارواح الموتى بارواح الاحياء، وبالتالي من مغزى هذه الاحتفالات، انّ الموت ليس نهاية الانسان، وانّ هناك حياة ثانية تنتظره.

وجد الباحثون صعوبة كبيرة في الوصول الى كشف اسرار معظم الاسر في مدغشقر، وان نصف السكان على الاقل، ما زالوا يعتقدون بأن ارواح موتاهم تعيش معهم ولا تفارقهم.

وللقبائل في مدغشقر عادات غريبة في تكريم الموتى، كأقامة اضرحة ضخمة فخمة بالغة النفقات.

وهناك قبيلتان فقط هما اكبر القبائل. وتشكلان نصف

السكان، (٧ ملايين نسمة) تنبشان العظام من القبور، وتقيم لها احتفالات ومآدب وحفلات رقص.

وتعرف هاتان القبيلتان باسم ميريناس وبتسيلوس.

تنبش عظام الموتى عادة، كلّ ثلاث سنوات مرة واحدة وسط رقص غريب. وتجري هذه الاحتفالات في خلال شهر آب (اغسطس) وايلول (سبتمبر) وتشرين الاول (اوكتوبر) بعد ان ينتهي موسم حصد الارز.

تبلغ نفقات الاحتفالات بعظام الموتى مبالغ طائلة، حتى أن بعض الاسر، يبيع كلّ غلاله من الارز لتأمين مثل هذه الاحتفالات. ويدفن سكان مدغشقر مع موتاهم، كميات كبيرة من الذهب والنقود.

يرتدي المحتفلون افخر الثياب واغلاها ثمناً. وتستمر كلّ اسرة باحتفالاتها مدة يومين. والاسرة الثرية تستأجر اكثر من فرقة موسيقية للعزف في خلال هذه المناسبات.

تقوم راقصات محترفات بتأدية رقصات بالقرب من العظام، وكلّما استمرت وقتاً اطول في رقصاتها، كلّما "ارتاحت" روح الميت. وفي اليوم الثاني من الاحتفالات، يقدم كلّ فرد من افراد اسرة الميت نفسه الى العظام.

وتختتم الاحتفالات بلف العظام بقماش من حرير، والرقص بها في الشوارع، ومن ثمّ يعاد دفنها في الضريح نفسه. وفي بعض الاحيان يظلّ قريب الميت يرقص ويرقص حتى يغيب عن الوعي. ويضع بعض افراد القبائل مع العظام كميّة من التبغ حتى تظلّ الروح مرتاحة.

يظلّ الحديث مع العظام محصوراً حول الاعمال الجيدة

والصالحة، ويتجنب المحتفلون ايّ حديث سيء معها، حتى لا تغضب روح الميت.

وتقضي التقاليد ان يدور اقرباء الميت، وهم يرفعون العظام اربع مرات حول القبر قبل دفنها.

يضع السكان عادة سجادة فخمة في داخل القبر. وبعد مرور بين ٣٠ و٥٠ سنة يقوم السكان بجمع العظام كلّها من الاضرحة ووضعها في ضريح كبير واحد.

ولعلّ اطرف ما في الامر ان السكان يعتقدون بأن الهدف الرئيسي من الزواج في مدغشقر، هو ايجاد شخص يعتني بالاخر (الزوج او الزوجة) في حال وفاة احدهما، والاشتراك في رقصة العظام.

سيري لانكا والضرس العجيب

لا يهبط القمر على الارض في سيري لانكا. الناس هناك يعتقدون بانهم يتسلقون اليه على ظهور الفيلة ويقطعون في خلال ساعات قصيرة، حوالي ٤٠٠ الف كيلومتر. يحدث هذا في منتصف شهر "ايزالا" القمري، وهو الذي يقع بين آخر تموز (يوليو) واول آب (اغسطس).

هذه المناسبة السنوية تخصص لتمجيد بوذا، وهي على شكل كرنفال فريد من نوعه، يخرج فيه الناس من زمنهم، كما يقول كبير زعمائهم.

يرقصون امام بوذا، ويطلقون الصيحات التي تكرّم الرجل الذي قال لهم: "كونوا كالعشب واملأوا الكون بالهدوء والخصب، وجدتم هنا كي تكونوا في كلّ مكان".

وهم لذلك يعتقدون انّه سيأتي يوم، تختفي فيه الذئاب من الكون. ويبدأ زمن الطيور تلك الخارجة على موبقات الارض. كما يقول الكاتب البوذي الشهير "دوك ميهكونغ".

يتألف الموكب من ثمانين فيلاً، مجللة بالقماش النفيس، تحيط بها مجموعة من الموسيقيين والراقصين، والمنشدين

وحملة السياط والرايات والمشاعل، ويجوب الموكب في انحاء المدن في سيري لانكا.

تجدر الاشارة الى انّ هذه الاحتفالات قديمة، ابتدعها في القرن الثامن عشر الملك "كيرتي سري"، ومنذ ذلك الحين تعرف "سيري لانكا"، ولمدة ١٥٠ ساعة متواصلة، بالغناء ورشّ الزهور. ثم يبادر المشاركون بعد ذلك الى "اكتشاف انفسهم" من خلال التحديق بمياه البحيرة الصافية، التي يطلق عليها بعضهم اسم "جوهرة آسيا".

تعتبر الليلة السادسة، الاهم في موكب "دالادا ماليغو" وهو اسم المكان الذي يحتفل فيه، والذي يضم الذخيرة الانفس في الجزيرة. وهي عبارة عن ضرس لبوذا وضع داخل صندوق خاص على شكل زهرة لوتس.

هذا الصندوق السابع في سلسلة سبعة صناديق محلاّة بالاحجار الكريمة. لذلك يقع الاختيار على كبير الفيلة كي يتولّى حمله وادخاله الى احدى غرف المكان المخصص للاحتفال، حيث يزينه رئيس القوم، ويغطيه بمعطف محاك من الخيوط الذهبية والفضية. ويجري تلبيس نابيه بالنحاس وقوائمه بالخلاخيل المعدنية.

والتركيز على الفيلة بالذات يعود الى تلك الاسطورة التي تقول: ان الملكة مايا حملت ببوذا وهي تمتطي دغفلا (الفيل الصغير) مما دفع الشعب الى الاعتقاد ان هذا الحيوان يرمز الى النعمة، والى المعرفة في هذا العالم المتحرك والزائل.

لذلك يخلعون عليه الذهب والمخمل والحرير، قبل حلول الليالي الست، اذ يتولى نقل التماثيل الصغيرة والقديمة الى ساحة معينة كي يشاهدها الناس.

في الليلة الاولى يهبط الفيل الكبير سلم مكان الاحتفال، فيما يشعر الناس ان ساعة الصعود الى القمة دنت. وهو يسير على ارض مفروشة بالسجاد.

اما الاطار الهندسي للموكب فيتم على الشكل التالي: فيل وحيد يتقدم. يمتطيه الرئيس، يحمل عصا فضية، وتلحق به مجموعة الفيلة الملكية، فيما ترتفع اصوات الطبول "بايقاعات مختلفة". ومن ثم يتقدم حملة الاعلام الذين يمثلون مختلف القطاعات برموزها المعروفة: اللوتس، الببغاء، الدبّ، النمر، الانسان، العصفور، ثم الفيل الاخير الذي يحمل الضرس.

بعد ذلك يظهر حملة المشاعل على صوت المزامير والابواق النصفية والصنوج. وتبلغ حماسة الناس اشدّها على انغام الموسيقى، وتنشأ لديهم حالات مثيرة: صمت شامل، ثم صخب في ايقاع تبادلي ووسط كلّ ذلك، يتقدم الفيل الكبير، وعلى ظهره "الهودج" الذي تسطع حجارته الكريمة تحت اشعة القمر.

والواقع ان الفيلة تظهر تفهماً كاملاً للموقف. فهي تسير بشكل ايقاعي من دون ان تحرّك سوى قوائمها. امّا الرأس فيخفض امام الرمز الذي ينحني امامه سكان الجزيرة باكملهم.

حارس الضرس هو الذي يختتم كرنفال الليالي الست. محاطاً بالخدم، وذلك باعادة الضرس الى مكانه سالماً. ويتم كشفه كل مساء امام الناس الذين ترتفع شهقاتهم، وهم يشاهدون هذه "القطعة العظيمة"، التي وصلت الى "سيري لانكا" في القرن الرابع.

تقول احدى الاساطير ان اميرة خبأت الضرس في جديلتها، وحملته معها من مدينة كالنجا في الهند بأمر من احد الامراء.

تطوع الكثيرون لبناء مكان يستقر فيه الضرس، الذي يظلّ

يدور هكذا داخل سيلان حوالي القرنين، حتى تمَّ اخيراً نقله الى مدينة "كاندي". ورأى اهلها ان الضرس طرد البؤس من مدينتهم، لذلك قرروا تتويجه ملكاً عليهم منذ القرن السادس عشر، معتبرين ان فقدانه يعني دمار الجزيرة باسرها.

ولا ينسى المواطنون تلك الواقعة الرهيبة التي حدثت العام ١٨١٥ عندما صادر ضابط بريطاني الضرس. وتوافق ذلك مع اسقاط الملكية التي تحدّر افرادها من الاميرة صاحبة الجديلة. لكن ما لبثت بريطانيا ان اعادت الضرس الى اهالي كاندي العام ١٨٥٠.

تبلغ تكاليف المهرجان حوالى مليون جنيه استرليني، واحياناً تفوق هذا المبلغ بكثير، وتعتبر الليالي الست من اجمل الايام في الجزيرة.

اريتريا... وعادات عربية

عرف الفراعنة اريتريا بأنها بلاد "بونشا"، واطلق الاغريق اسمها على البحر الاحمر، فكان ان دعي "سيتوس ارتريوس" بحر اريتريا، وكانت مدينة "عدوليس" مركزاً تجارياً للعالم القديم، تحتفظ آثارها الى اليوم ببصمات بطليموس الثاني في القرن الرابع ق.م.

وعلى الرغم من ان اريتريا تقع في المنطقة الاستوائية، إلا ان اغلب مناطقها تتمتع بجو ربيعي دائم، نتيجة للارتفاع الذي يبلغ مداه، ليصل الى عشرة آلاف قدم فوق سطح البحر في الهضبة الجنوبية. وبسبب الموقع الاستراتيجي الذي تتمتع به اريتريا، والمشرف على الممر المائي الذي يربط طريق الهند البحري وطرق آسيا بالبحر الابيض عن طريق قناة السويس، جعل منها معبراً لتجارة الشرق والغرب، كما جعلها هدفاً للغارات ومحط انظار الغزاة منذ اقدم العصور.

من المعروف تاريخياً ان سكان مملكة "اكسوم" الحبشية، التي نشأت في القرون الغابرة في هضبة اريتريا والتجراي، انما كانوا من نازحي اليمن في عهود دولة سبأ وحمير، وبخاصة

بعد ان دمرت السيول سد مأرب المشهور، وتقل النازحون حضارتهم الى الشاطىء الغربي من البحر الاحمر، ونظموا الزراعة على شكل مدرجات في سفوح الجبال على غرار نظام الزراعة في هضبة اليمن الخضراء. وكانت "اكسوم" حاضرة مملكتهم، ولا تزال المسلات المشهورة شاهدة على عظم هذه الحضارة التي شيدت في اريتريا وجزء من الحبشة.

تقع اريتريا جنوب السودان، ولها ساحل يمتدّ ٦٠٠ ميل على البحر الاحمر حتى جيبوتي، وخلف اريتريا تقع اثيوبيا. وهذا الموقع البحري الشاسع والمهم، هو الذي جعل اثيوبيا تطمع في اريتريا. ويؤكد الجغرافيون ممن زاروا اريتريا ودرسوا طبيعتها، انه ليس من مكان آخر في افريقيا حبته الطبيعة بتنوع وتضاد في ظواهره الجغرافية-الطبيعية، التي وضعت على تقارب واتصال، كما هو في اريتريا.

السطح الاريتري يتكوّن من: صخور بلورية واخرى مصفحة الجوانب ومتحولّة الالوان، غرانيتية واخرى نارية كبيرة الحبيبات، حجارة البازلت النارية السوداء، صخور البوتاس اللامعة، الحجارة الكلسية والرملية، الحرل الخزفي والصلصال والطمي.

والتباين في المظاهر البشرية مثير هو الآخر للدهشة، فمن ناحية التسلسل السكاني تعتبر اريتريا موطناً لخليط من الشعوب، لكل منها نظامه الاجتماعي الخاص به، وهناك على الاقل عشر لهجات مختلفة، تبتدىء بالتجرينية والتجري الد ميتين، الى الدنكلية والبجاوية الحاميتين الى البارية والكونامية السودانيتين، بالاضافة الى لهجات مجهولة كالساهو والبلين.

ويتفاوت السكان بين اوضاع الاستقرار والبداوة وشبه البداوة. يسكنون منازل متباينة، منها ذات سقوف مسطحة تسمى "هدمو"، او على شكل دائري تسمى "اقدو" مع سقف مخروطي، واكواخ كالقباب بالنسبة للرحل وشبه الرحل، ويطلقون عليها اسم "داس" وهي مصنوعة من فروع اشجار، او خيام من اشكال متعددة.

الاريتريون ضمن مجموعاتهم يتحلّون بذاكرة تاريخية قوية. ويمكن ان يضاف ان الاريتري شديد الاحساس بخصائص البيئة المتفردة، التي تحيط به والخاصة ببلده.

المسلمون في اريتريا، هم في الغالب سكان المنحدرات الشرقية حيث تنتشر قبائلهم... الساهو والدناكل المسماة "عفر" تسكن منطقة دنكاليا على شواطىء البحر الاحمر. ومعظم هذه القبائل من الرحل، وقبائل البني عامر والماريا والمنسع والحباب تسكن المناطق الغربية والشمالية الشرقية من اريتريا واكثرها يعتمد الرعي وتربية الحيوانات، وتمتاز منطقتهم بالكثافة والثروة الحيوانية.

العادات العربية القديمة نفسها موجودة لدى مسلمي اريتريا، فهم يمجدون البطولة والمروءة والقتال والكرم، في بعض قراهم النائية، يمكنك ان تستمع الى قصص مدهشة في دقتها عن تاريخ الاسلام والشخصيات الاسلامية الشهيرة، يرويها رعاة او مزارعون اميون، وحين تسألهم عن مصدر معلوماتهم هذه، يجيبونك بانهم تناقلوها من آبائهم عن اجدادهم. وفي الغالب يعيش هؤلاء الرعاة في خيام ومضارب.

عرف عن اريتريا انها اول بلد في افريقيا وصل اليه الصحابة، وعدد من الشخصيات الاسلامية الكبيرة، حين خرج

ما يقارب الاحد عشر شخصاً من اصحاب الرسول (صلعم) هرباً من بطش قريش الى السواحل الاريترية، وتوغلوا فيما بعد في مرتفعات اكسوم واستطاعوا مقابلة النجاشي، وشرح دينهم الجديد له. وكان ذلك في العام ٦١٥.

وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب، استعمل المسلمون جزيرة "دهلك"، وهي اكبر الجزر الاريترية في البحر الاحمر"، منفى للمغضوب عليهم من الدولة، لبعدها وشدة حرارتها.

والساحل الاريتري شهد موجات متتابعة من نازحي الجزيرة العربية في القرن الثالث الهجري، لذلك يبدو الارتري اكثر تأثراً بالعادات العربية والاسلامية من غيرها. وهناك بعض التقاليد في اساليب العيش، احتفظ بها الاريتريون من عهد الفراعنة، ويمكنك ان تلاحظ، وانت تدخل المتحف المصري، ان العديد من نماذج حلي نساء الفراعنة واحذيتهن وملابسهن مستعملة حاليا لدى النساء الاريتر يات.

احتفظ الريفيون وسكان المرتفعات ببعض فنونهم الشعبية البسيطة من دون تطويرها. بينما ضيعت المدن الكبيرة تراثها القديم، ولم تقدم فناً حديثاً ذا سمة خاصة. الا ان الواعين من ابنائها اليوم يسعون لاستعادة وجهها الثقافي والحضاري الاصيل.

كوريا الجنوبية ورقصة المراوح

مثل اي بلد في جنوب شرقي آسيا، تحتفل كوريا الجنوبية بتقاليد جميلة وشائعة. وعندما تقف على برج "نام سان" وهو برج شامخ على جبل يقع جنوب العاصمة سيول ذات الملايين الثمانية، تشاهد المنظر المثير حيث تتزاوج الحضارات. وتشاهد بذهول ناطحات السحاب، جنباً الى جنب مع البيوت الخشبية التي اشتهرت بها دول جنوب شرقي آسيا.

تاريخ هذا البلد يرجع الى خمسة الآف سنة، ولعلّ اكثر العهود ازدهاراً في هذا التاريخ الطويل، هو عهد حكم سلالة الملك سيللا ديناستي.

هناك اسطورة كورية تقول: ان هذا الملك كان محبوباً من شعبه، بحيث انتحر من اجله، ثلاثة الآف منهم من على شرفة قصره الواقع على الشاطيء في مقاطعة بيكتي التاريخية.

وعندما تدخل الى مدينة وتتعمق فيها، تفاجأ بسوق "نامدي مون" وهو ضيق وطويل ويتصف بطريقة عرض البضائع. اما روائح البهارات التي تعبق في ارجائه والمنتوجات التقليدية

المصنوعة باليد، فانها تكاد تكون متشابهة، ولكنّ الشبه الاكبر هو الازدحام.

الزائر المحظوظ هو الذي تتاح له في خلال زيارته، فرصة مشاهدة واحد من المهرجانات الشعبية التي تقام في الاعياد والمناسبات القومية.

اروع ما في تلك المهرجانات منظر الكوريين وهم يرتدون ملابسهم الحريرية المزركشة، وبخاصة الفتيات بلباسهن القومي ذي الالوان الزاهية.

من اطرف تلك المناسبات "يوم الالوان". الجميع يصبغون اجسادهم بالوان متعددة، ويسيرون في الشوارع في الوقت الذي يرشّون فيه الاصباغ والماء على المارة.

والرقص الشعبي الكوري مدهش للغاية، ولكنّ رقصة المراوح هي الرقصة المنتشرة والتي تؤديها جميع الكوريات تقريباً. وفي هذه الرقصة تتجمع الفتيات في حلقات يحملن مراوحهن المصنوعة من الورق المشمع والمزخرف بدقة، ويؤدين حركاتهن ببراعة وبتناسق ممتع مع حركة المراوح.

الزواج في كوريا له تقاليده، وعندما يصادف الشاب فتاة تعجبه، تبدأ التقاليد الخاصة بذهاب اهل الشاب لخطبة الفتاة، ثم يتم عقد القران. وفي حفل الزفاف يرتدي الشاب الملابس التقليدية وتلبس العروس الملابس الشعبية المزركشة. وامام المدعوين يسقي العريس عروسه الماء بكفيه ثم ينحنيان لبعضهما بعضاً، وينحني العريس لاهل العروس في حين تنحني العروس لاهل العريس... ويذهبان الى بيتهما الجديد.

ولكنّ هذه التقاليد لم تعد كما كانت في السابق، بل ان القليل

من العائلات تقوم بها. والشاب الكوري في الوقت الحاضر يقول بصراحة ان الحب هو رابطة بين شخصين، ولهذا فليس هناك ما يستوجب كلّ هذه الاحتفالات والتقاليد.

الهنود الحمر والخوف من الانقراض

قيل انهم من المصريين، ونسب آخرون اصلهم الى اسلاف الذين نجوا من قارة اتلانتيس المفقودة.

مهما كان الامر فان اثنين لا يختلفان في هذه الحقيقة، وهي انه قبل ان يضع كريستوف كولومبس قدميه على ارض العالم الجديد بالاف السنين، كان هناك انسان آخر، سبقه قادماً من قارة اسيا، وانتشر في ربوع هذا الجزء من العالم، وقد ظنه كولومبس هندياً لشبه في الشكل والقسمات بينه وبين الهندي الذي يعرفه الجميع.

والهنود الحمر انفسهم يختلفون فيما بينهم اشد الاختلاف، من حيث القسمات واللون واللغة والعادات، باختلاف المناطق التي يقيمون فيها، والتي تنتشر من المنطقة الشمالية عبر العالم الجديد بكامله، حتى ادنى القارة الاميركية الجنوبية، عند رأس هورن.

باحثون قاموا بعدة ابحاث حول اكتشاف اميركا، ونتيجة لذلك طرحوا السؤال التالي: "متى اكتشف الانسان اميركا؟ انه اللغز الكبير الذي ظلّ مثار حيرة العلماء، واحتدم النزاع بينهم حينما عثروا على جمجمة لانسان بدائي في مدفن. ووجدوا

ادوات، بقربها نقوشاً ثبت انها هندية. وهي تحمل رموزاً تماثل ما هو محفور على جدران المدافن الفرعونية. وبين العلماء من يصرّ على انه لا يمكن الوصول الى حقيقة الانسان الاول الذي وصل الى اميركا، ما لم نتأكد من مكان الانسان الاول الذي ظهر على الارض.

في العام ١٩٥٩ عثر الدكتور لويس ليكي وزوجته على جمجمتين واربعين سناً، مدفونة جميعها في حفرة في سهل سرنجتي. ومنذ هذا الحين انتقلت نظرية ظهور الانسان الاول الى افريقيا. وابتعد تاريخ هذا الظهور بمقدار مليون سنة.

واستناداً الى مثل هذه النظريات التي تتعرض للتعديل تبعاً للاكتشافات الجديدة، من الصعب التكهن بمكان الانسان الاول، او وضع نظرية تعتمد على تاريخ اكثر بعداً، كأن يكون في اميركا مثلاً.

بين العلماء من يعتقد بنظرية تقول: ان من شاهد اميركا كان من المصريين والفينيقيين، وآخرون يؤكدون نظريات تثبت ان الاولوية للاغريق، او للاتروسكان، او للصينيين، اوللهندوس او لليابانيين او لاهل الباسك او للايرلنديين.

ومهما يكن من امر، فان قروناً طويلة مضت منذ اكتشاف كولومبوس للعالم الجديد والسكان الاصليين في قارة اميركا الشمالية. وهؤلاء شيّدوا مدناً كبيرة بالاحجار على الاكمات العالية، وقنوات للريّ تمتد شبكاتها مسافات طويلة.

انهم الذين ابتكروا للعالم الغربي اول حرف النقش والحفر، واستعانوا بلغة الاشارة والنظارة الشمسية، ومارسوا الطب مستخدمين ادوية الطبيعة. وهم الذين تغلبوا على مجاري الانهار بقوارب "الكاياك" المصنوعة من جذور الاشجار.

شعوب ماهرة، انحدرت من اصلاب الاسيويين، ممن عاشوا في العصر الجليدي، وانتشروا فوق اراضي اميركا الشاسعة، مستفيدين من الموارد الوفيرة لسدّ احتياجاتهم، وطوّروا ثقافتهم، وادخلوا التنويع والمرونة فيها، لكي تتفق مع طبيعة المناطق التي وصلوا اليها واستقروا فيها.

والهنود الحمر ينقسمون الى قبائل عدة، هي في شكلها العام تنقسم الى مجموعات بارزة تحتوي الاسكيمو، الايروكوا، لالجونكيين الشيروكي، البويبلو، النافاجو والاباشي.

ويعتقدون بوجود روح شريرة بوسعها التغلب على الروح الصالحة، يرهبونها ويتّقون بأسها خشية اصابتهم بسوء.

للهنود اعياد مثل غيرهم، منها: عيد الذرة الخضراء، ويعتقدون بالكثير من الخرافات. فهم يحذرون ذكر اسم الهر الوحشي على مسامع اطفالهم. وكذلك ذكر فأرة الحقل، لاعتقادهم ان ذكر اي منهما يؤدي الى مرض الاطفال وموتهم.

كما يعتقدون في الرقم خمسة، بوصفه سراً من الاسرار ويعتبرون جلود الذئاب طاهرة، ويفرشونها في منازلهم.

يقدر عدد الهنود الذين كانوا يسكنون القارتين عند قدوم كولومبوس بنحو ٢٠ مليون هندي. وظلّ هذا الرقم يتقلص تدريجياً مع موجات الوصول الاوروبي، الى ان قاربوا المليون لا غير في العام ١٩١٠، الامر الذي اثار مخاوف علماء الاجتماع من انقراض عنصر نادر، هو الاميركي الاصلي.

مازالت حقيقة الوجود الهندي في القارة الاميركية غامضة، وان كانت الآراء تميل الى تأييد النظرية التقليدية القائلة: انهم

وصلوا عبر مضيق بيرنج الفاصل بين قارتي اسيا واوروبا.

حدث هذا منذ نحو ٢٠ او ٣٠ الفاً من الاعوام. حيث كان العصر الثلجي يسيطر على القارة الشمالية، والغطاء الثلجي يمتدّ جنوباً فجعل من الكتلتين الضخمتين، اميركا الشمالية واوروبا كتلة ضخمة متصلة من الاطراف الشمالية. واصبح المضيق في الواقع بمثابة معبر متسع الاطراف، فلم يشعر الهندي وهو منطلق وراء فريسته بأنه انما كان يعبر محيطاً يفصل بين قارتين كبيرتين. وذهل الهندي لكثرة الصيد في البقعة الجديدة، فسارع بابلاغ افراد قبيلته التي انتقلت معه الى ارض الهجرة الجديدة.

تناقلت القبائل الهندية هذه الاخبار فأخذت بدورها تطوي خيامها سعياً وراء الرزق الجديد، واستمرت جماعات الهنود تتوافد على الهجرة، وظلوا يشقون طريقهم ميممين جنوباً، واستغرق ذلك منهم ٢٥ الف عام منذ بدء هجرة الهندي الاول.

وبانحسار الغطاء الثلجي، وذوبان المعبر الفاصل بين القارتين، انقطعت الصلة بين الهندي المهاجر وارض اجداده في اسيا، ونسي هذه الصلة فعلاً بمرور الزمن.

وهناك احتمال ان تكون قبائل اخرى قد عبرت المحيط الهادي، قادمة من جزر "الوشيان" بالقوارب التي كانوا قد عرفوا استعمالها منذ زمن طويل. وان تكون قبائل اخرى قد عبرت ايضاً المحيط الهادي من جزر البولينيز.

احد الرحالة الباحثين زار قرية هندية، ويقول بهذا الصدد: في قرية هندية قريبة من مونتريال، قضيت يوماً كاملاً مع قبيلة "الموهوك" المشهورة، واختلطت بافرادها من رجال

ونساء واطفال، وتذوقت اطعمتهم الغريبة، وشاهدت رقصاتهم التي اختلطت بقرع الطبول والغناء العالي.

ثم سنحت لي فرصة تبادل الحديث مع بعض افراد القبيلة. ولفت نظري زعيم هندي يرتدي ثياباً زاهية ملوّنة، صنعت من جلود الحيوانات وريش الطيور وزوّدت بانياب الحيوانات ومناقير الطيور، وكلّ ما يرمز الى طبيعة الغاب، ببدائيتها وقوتها، وهم يعمدون الى التشبّه بها متمثلين بشجاعة الحيوان ومرونة الطيور وسرعتها.

...ويحدق بي الزعيم الهندي وهو يدخن غليونه الطويل، وينفسه عالياً، فيتصاعد الدخان الى اعلى الخيمة الهندية الصغيرة في حلقات، ويظل متتبعاً لها، وكأنه يطالع صفحة معينة من الحاضر او الماضي، ولعلّه المستقبل، الى ان تتلاشى حلقات الدخان، فيطوي صفحتها. واسأله: من اين جئتم؟ وما سرّ وجودكم على هذه القارة؟ يجيب:

اسلافنا قدموا من الشمال. رحلتهم لم تكن تقاس بمعيار الزمن والقرون. هي رحلة للنفس كما هي هجرة للناس. اننا اذا ما تساءلنا عن قصة حضورنا، يمكن ان نجيب: ان سكان الارخبيل سوف يؤكدون انهم قدموا من قارة آسيا عبر مضيق بيرنغ الفاصل بين قارتي اميركا الشمالية واسيا، وذلك منذ ١٥ الف عام. المضيق لم يكن كما هو اليوم، كان جسراً جليدياً في العصر الثلجي، الذي كان يغطي جانباً كبيراً من نصف الكرة الشمالي. وهو لم يكن عقبة او حائلاً دون عبور قبائلنا القديمة الى الطرف الشمالي من اميركا، قادمين من آسيا.

الهنود الحمر يعرفون اصولهم القديمة ومن اين اتوا، لقد حددوا عالمهم ووضعوا النظام الذي يجب ان يسود بينهم.

ازدياد المتاعب:

حين وصل جون كابوت وغيره من المستعمرين الفرنسيين الاوائل الى مناطق كندا، نقلوا الى اوروبا حكايات خيالية عن الفراء الثمين، ومصايد الاسماك الغنية في هذه البلاد الجديدة.

وفي العام ١٥٣٥ رست مراكب جاك كارتييه الفرنسي عند موقع التقاء نهر السانت لورانس بالمحيط الاطلسي، واستقل قارباً، ثم تسلق صخور الشاطىء الصخري حيث وضع نصباً خشبياً حفرت عليه علامات فرنسية.

وفي العام التالي كان يتسلق جبلاً آخر يتوسط موقع مدينة مونتريال الحالية، حيث نصب العلم الفرنسي معلناً الحكم الفرنسي لهذه المنطقة من العالم، وقد دام هذا الحكم ٢٢٥ عاماً حفلت بالاحداث التاريخية، الى ان انتزع الانكليز العلم الفرنسي من سارية قلعة مدينة كيبيك، ورفعوا مكانه علمهم الانكليزي العام ١٧٦٣، وبه اصبحت البلاد جوهرة جديدة في التاج البريطاني.

دامت هذه الصورة ما يزيد على قرن من الزمان، الى ان حلّ الاتحاد الفيدرالي الجديد محل الصورة القديمة العام ١٨٦٧، ولم تعد علاقة البلاد بالامبراطورية العجوز سوى من خلال حاكم عام، وهو في الواقع اثر تاريخي لعهد انتهى ومضى.

وبالعودة الى الفترة الاخرى التي بدأت بوصول المستعمرين الاوائل، شعر الاوروبيون بقيمة الفراء الاميركي الكندي، وسعوا الى التبادل التجاري مع الهنود. وكان هؤلاء على استعداد لمقايضتهم الفراء بالخرز والخناجر الملوّنة والبنادق والبارود.

وشعرت كل قبيلة بقوتها بقدر ما تملك من سلاح وذخيرة، فسعت للقضاء على منافسيها في ميدان التجارة. وعمد بعضهم الى محاربة بعضهم الآخر، وكان ذلك بداية لسلسلة رهيبة من المذابح انتشرت بين القبائل الهندية، ولم يكن الاوروبي يتردد في تزويد القبيلة التي ينتقيها بالاسلحة بحجة معاونتها على سرعة الصيد. وبتقلب الحكام الفرنسيين والانكليز على الانسان الاحمر، ازدادت متاعب الهندي، واستغل الفرنسيون الحروب الدائرة بين الهنود، لكي يشقوا طريقهم الى قلب القارة، الى ان وصلوا الى البحيرات العظمى عن طريق الانهار العديدة.

وقدم مغامرون آخرون بحثاً عن الثراء، وشقوا طريقهم الى داخل القارة من دون اذن او ترخيص من الحكومة، فتزاوجوا من الهنديات، واقاموا في مستعمرات الهنود. واصبح هذا العنصر المولد مصدر نزاع كبير فيما بعد. بل ان ثورة عارمة قد اجتاحت المناطق الوسطى، اشعل نارها زعيم مولد يدعى لويس ريبل.

غير ان الهندي ظلّ موالياً للفرنسي، ولم يكف عن حقده على الانكليزي. ويبدو ان الفرنسي قد تفهم نفسية الهندي، فعامله كما يعامل الطفل الصغير، وزوده بالهدايا الملوّنة، ولم يحرمه من التردد على قلاعه وبيوته ومتاجره.

اما الانكليزي فلم يكن يفهم نفسية الرجل الاحمر، فهم الفرنسي لها. فمنعه من التردد على حصونه او حتى الاقتراب منها، وتمادى في عجرفته وصلفه فتجاهل تقاليد الهنود في مجالسهم، ولم يحترم محادثتهم في سبيل السلم، ولم يعن بتزويده بالهدايا كما فعل الفرنسي.

وعمد الفرنسيون تجار الفراء الى استغلال الفرصة، فشجعوا الهنود وحرضوهم على الثورة ضد الانكليز. وكان الهنود في الواقع على استعداد تام للعمل، حينما ظهر بينهم زعيم قوي يعرف في التاريخ باسم "بونتياك"، كان يملك من صفات الشجاعة والدهاء الشيء الكثير. فدبر الخطط لتدمير "هؤلاء الغزاة ذوي الوجوه الباهتة"، وكان يهدف من ورائها الى قتل الجنود وتدمير حصونهم وطردهم من البلاد. وقد ذاق الانكليز صنوف العذاب نتيجة لهجمات الهنود، الذين اعملوا فيهم السلب والنهب والذبح ومحاصرة قلاعهم فترات طويلة امتدت سنوات احياناً.

اثبت الهنود في مراحل تاريخهم الدموي دهاء ومكراً منقطعي النظير، فضلاً عن صبرهم الطويل على تنفيذ المخططات التي يضعونها.

ولم تكن كل القبائل في حالة عداء مع الانكليز، فقد كان من بينها قبائل موالية، ابان حرب الاستقلال التي خاضتها المستعمرات الجنوبية (الولايات المتحدة الاميركية فيما بعد) ضد الانكليز.

ومن اشهر القبائل الموالية قبيلة "الموهوك" التي ظلت على ولائها للانكليز، بل انها آثرت الانتقال الى كندا شمالاً، بعد انحسار ظلّ الحكم الانكليزي عن الولايات المتحدة الاميركية، وما زالت هذه القبيلة تنعم بالحكم الانكليزي حتى الآن في كندا.

وثمة زعيم مشهور من الهنود دعي ذات مرة لزيارة ملك بريطانيا، حيث اقيمت له المآدب والحفلات كان فيها موضع تكريم، وهو يخطر بين المدعوين بردائه الهندي والوانه ورياشه، من دون ان ينسى البلطة المتدلية من حزامه.

كانت تلك محاولة مجدية لكسب ولاء هؤلاء الهنود، وبخاصة تلك القبيلة التي تعدّ زعيمة لست "امم" من الهنود.

وعلى ذكر امم الهنود، فالجدير ذكره ان للهنود الحمر تراثاً وثقافات متعددة يمكن جمعها وتقسيمها ١٧ نوعاً، تختلف من حيث المنطقة الجغرافية واسلوب المعيشة. كما ان لغاتهم تبلغ نحو ١٥٠٠ لغة تتحدث بها ٣٠٠ قبيلة مختلفة اهمها: الايروكوا والموهوك.

حالة غضب:

اسئلة كثيرة تطرح حول وسائل معيشتهم، وما مدى اختلاط الهنود الحمر بالكنديين. هذه الاسئلة تثير الخيال، وبخاصة بالنسبة لمن لا يقيمون في هذه البلاد. وانما يشاهدون افلام رعاة البقر التي تصور الهندي على انه بدائي همجي متوحش، لا يعرف تقليداً ولا يوثق بعهوده، ويحق طرده وقتله اينما وُجد.

هي صورة مشوهة كل التشويه. فلقد اثّرت الحضارة الحقيقية في كثير من هؤلاء الهنود، فاندمجوا في الحياة الحديثة، بل ان صفة الاصل الهندي قد زالت وانتهت بالنسبة لكثير منهم.

غير ان هناك كثيرين ما زالوا يقاومون تيار الحضارة، ويرفضون وصاية الابيض عليهم. هؤلاء الافراد مازالوا يقيمون في مستعمرات خاصة، افردتها لهم الحكومة حيث يزاولون شعائرهم ويمارسون تقاليدهم الموروثة. داخل نطاق مستعمراتهم. وبعضهم طعّم الاسلوب الهندي بلون محدد من الثقافة الحديثة. وما زالت بعض القبائل تحتفظ بالتقاليد

والعادات القديمة نفسها، والتي قد نشاهدها على الشاشة الصغيرة، مثل الرقصات المعروفة، وتلك المجالس التي يتبادلون فيها آراءهم السياسية.

الهندي الاحمر الكندي يعيش في مرحلته الراهنة في حالة غضب وثورة، لان الاراضي هندية وملك للهنود، وهذا ما يحاول الهنود وزعماؤهم توضيحه للرأي العام، بمختلف الطرق العصرية مثل الصحف والتلفزيون.

والهنود ينددون بتنكر الابيض لمواثيقه وعهوده، ويلمحون الى ان كندا لم تكن لتوجد، لولا احترام الهنود للمعاهدات المكتوبة. ولولا ذلك لظلّ الهندي يحارب بكلّ الضراوة والشراسة.

كثيراً ما يشير الهندي الى فضله في قيام دولتي الولايات المتحدة الاميركية وكندا، فهو السبب المباشر في خلق الدولتين، فشعب الهنود هو الذي ارشد جاك كارتييه عبر نهر السانت لوارنس، وهو الذي ارشد المستعمرين الاوائل ودربهم على اجتياز المسالك والدروب حتى اكتشفوا مجاهل القارة باسرها.

ويرجع الفضل الى الهنود في معرفة عدد كبير من المحاصيل الزراعية التي تنتشر في انحاء العالم، مثل الذرة والبطاطا والفول السوداني والفلفل والاناناس والكاكاو والمادة الصمغية المستخدمة في صناعة اللبان والطماطم، والعديد من انواع الحبوب والبقول والتبغ ومادة الكوكا ومادة الكاسكارا المليّنة، وعشرات من المحاصيل والمواد التي تستخدم في كل مطابخ العالم ومعامله الطبيّة.

والهندي يرى نفسه احد افراد شعب مهزوم مغلوب على امره، شعب يشعر بأنه كان ضحية غزوات انسان دخيل ابيض، وقد ظلّ شعور البغض يتفاقم معه على مرّ السنين.

كما انه يشعر بوطأة المظالم التي يرتكبها الانسان الابيض تجاهه، فهو لا يستطيع، في بعض مناطق كندا، دخول اماكن معينة مثل الفنادق والمطاعم، انها مناطق محرّمة بالنسبة له.

والحكومة في معاملتها للهندي تعتبره مهزوماً اعتزل الخدمة، فتصرف له الاعانات بصورة مساعدات انسانية، ولاتطلب منه سوى ان يلزم عقر داره، اذا ما ابى الاندماج كلياً في الحياة العصرية.

وهو يشعر بخيبة امل مريرة ازاء اجحاف الابيض بحقوقه، فقد زجته الحكومة في مناطق محدودة في اراض معينة اختارتها له. وحرمت عليه ممارسة احتفالاته، واعتبرت تعليم لغاته الاصلية امراً مخالفاً للقانون. وهاجمت الثقافة الهندية، وانتهكت المواثيق المعقودة مع الهنود القدامى.

وكتب التاريخ المقررة للاطفال البيض هي الكتب الوحيدة التي تدرّس لاطفال الهنود انفسهم. وهي كتب مليئة بحكايات القتل والذبح والخيانة، التي يقال ان اسلافهم قد ارتكبوها في مرّ العصور.

واسلوب الهندي في المعيشة امر لا تعترف به كندا، ولا تحمل اي تقدير، بعكس الحال في المكسيك مثلاً حيث تكسب الثقافة الهندية النسيج المكسيكي العام، ذلك اللون الجذاب المعروف له، وتجعل منها علامة من علامات الحضارة المكسيكية والتاريخ المكسيكي.

اما في كندا، فان الثقافة الهندية والتراث الهندي، لا محل لهما الا في زوايا المتاحف واقبيتها، ولزام عليك ان تقطع مئات الاميال لكي تقف على اثر محفوظ لهذا التراث، وهو يظهر في رقصاتهم التقليدية وازيائهم وتذكاراتهم واطفالهم الذين يزينون رؤوسهم بمختلف الاربطة والرياش.

لا نجد في كندا تاريخاً او تقويماً دقيقاً للهنود، وبخاصة في ما يتعلق بتقاليدهم وموسيقاهم واسلوب معيشتهم، بما يقضي على الصورة المشوهة التي تحتل اذهان الجميع من جراء الافلام.

اما مستوى المعيشة بالنسبة للهندي، فهو اقل بكثير من الحدّ الادنى للمستوى العام في كندا، وهو لا يزيد في المتوسط على الفي دولار في السنة. في حين ان المتوسط العام يبلغ ثلاثة الآف دولار.

ولذلك يشعر الهندي باجحاف الحكومة له، ويشعر بأن كرامته مهدورة، وانه لا يتمتع بسائر حقوق الكنديين. والحكومة الكندية على بيّنة من الغضب الكامن في نفوس الهنود الحمر، وهي تعمل الى اجراء تعديلات في القوانين المتعلقة بهم.

الهندي لا يخضع لنظام الضريبة ولا يمكن الحجز على ممتلكاته. ولهذا فانهم يجدون صعوبة بالغة في القيام بالمعاملات التجارية لانعدام الضمانات في ايديهم، مثل الرهن العقاري.

الا ان من المزايا المتاحة لهم اعفاؤهم من المصاريف الدراسية، بما في ذلك مرحلة التعليم الجامعي.

يمكن تقسيم الهنود الى فئتين، احداهما تأثرت بالحياة العصرية واصبحت اكثر تقبلاً لها، والاخرى ما زالت منعزلة في مستعمراتها النائية، يعيش افرادها الحياة البدائية من دون استعداد لتقبل عناصر الحياة الحديثة.

الهنود الحمر في الامازون:

كان العمال وراء الآتهم الجبارة يقتلعون الاشجار، ويشقون وسط الغابة الكثيفة طريقاً طالما ظنها الانسان من المستحيلات. فالغابة التي ستخترقها هذه الطريق صارت اشبه بالمكان الاسطوري.

انها مصدر وحي لكتّاب قصص الاطفال الخيالية. فالخيال لا يحلو له ان ينسج الاكاذيب الجميلة، الا حيث لم يصل عقل الانسان بعد، وكم مغامر وطالب معرفة حاولوا اقتحام المكان في تنافسهم مع خيال الادباء، فغابت اخبارهم وتحوّل سرّهم واختفاؤهم الغامض الى نصر جديد يحرزه كتّاب القصة، ويستلهمونه المغامرات التي كلما ازدادت وهماً، ازداد جهل الانسان لحقيقة الغابة.

فيما العمال يقتلعون الاشجار، ظهر فجأة من ورائها عدد كبير من الهنود الحمر الذين يبدو انهم لم يروا رجالاً بيضاً من قبل. بدت الحيرة وارتسمت علامات الاستفهام: شنبات ولحى؟ هذه مناظر لم يألفها هنود اميركا، وعمرهم ما رأوا وجه انسان يغطيه الشعر.

وراح الرجال وهم بالمئات يهددون العمال شاهرين في وجوههم اسلحة بدائية، لكنّها كافية لاشاعة الخوف في

القلوب، علماً بأن اوامر الحكومة البرازيلية تقول بكلّ بساطة: "لا تقتل ابداً واذا كان لابدّ لك من الموت، فمت". وهي تمنع العمال من استعمال السلاح حتى لغرض الارهاب.

وقف العمال حائرين في امرهم ينتظرون النهاية. وفي كلّ لحظة كانوا يتوهمون ان آخر عهد لهم بالحياة على الارض قد حان. لكم توهموا ان يفاجئهم ثعبان او حشرة سامة، وتوقعوا ان يفترسهم حيوان غريب خارج من مجاهل الادغال، او ربما من على صفحات الروايات الكاذبة. اما ينقض عليهم رجال مثلهم، بل الهنود الحمر بالذات وهم يتصورونهم في هذا العصر مسالمين، فهذا ما لم ينتظروه ابداً.

بدرت من احد العمال ملاحظة اسرّ بها في اذن صديقه: "اذا كان البيض في الشمال قد فعلوا بهم ما فعلوه، فها نحن بيض الجنوب ندفع الثمن". وتحركت يد هندي منذرة، فصمت العامل وراح ينتظر مصيره مستسلماً الى التعلق بالغيب.

وصدرت عن الهنود اوامر بالاشارة، تفرض على العمال ان ينتظموا صفاً واحداً على حافة الطريق التي شقوها، وبحركة آلية امتثل العمال لاوامر الحمر، فاقترب هؤلاء منهم وراحوا يتأملون وجوههم ملياً، مركزين الانظار على الشنبات واللحى.

وبرشاقة غير منتظرة راح الهنود يحلقون شنبات البيض ولحاهم حتى وجد جميع العمال انفسهم بوجوه تخلو من وبرة. وحين توفر للهنود المنظر الذي يناسب ذوقهم ويسمح لهم بتذوق جمالية الرقص والفنون الجميلة، اصدروا اوامرهم الجديدة القاضية بأن يرقص البيض على انغام طبولهم.

ارتفعت الانغام وهبّ العمال يرقصون وهم يجهلون مصيرهم كلّ الجهل. وبعد ساعة من الرقص القسري بالنسبة

الى فريق، والممتعة بالنسبة الى الآخر، راح الهنود الاميركيون يبدون استحسانهم حيال ذاك اللقاء السحري بين "حضارتين"، ثم امروا الفرقة بالتوقف عن الرقص ومضوا من حيث اتوا حاملين معهم مؤن العمال، وتاركين لهم ادوات العمل.

ومرت لحظة وقف في خلالها العمال لا يعرفون ماذا يفعلون. دارت الوجوه، والدهشة مرتسمة عليها، ثم انفجر الجميع ضاحكين. تلك كانت اغرب هزيمة عرفتها الحرب الدائرة منذ قرون بين البيض والحمر.

مضت ليلة من العمل المتواصل، والعمال لا يفكرون الا باستعادة احداث تلك القصة الغريبة، التي ما كانت لتخطر ببال كتّاب الروايات الوهمية.

وفي صباح اليوم التالي عاد الهنود الحمر الى المكان نفسه. وما ان رآهم البيض حتى دبّ الرعب في قلوبهم. لكن الهنود جلسوا على حافتي الطريق يتأملون العمال ويدققون في حركاتهم لساعات، من دون ان ينبسوا بكلمة. وبعدما اشبعوا حشريتهم وتذوقوا مظهراً من مظاهر الحضارة الحديثة مضوا بصمت وهدوء.

وجود البيض بينهم من دون ان يكلف الاقتناع رصاصة او جريحاً او قتيلاً. هنا يكمن الفرق بين غزاة الشمال البيض، وغزاة الجنوب، بين الغزاة القدامى، وغزاة هذه الايام.

الجراة المفاجئة:

اخيراً، شاء الانسان ان يغامر فيتوغل الى قلب تلك الادغال، حيث يقيم حوالي مائة وخمسين الف هندي احمر،

وحيث لا تزال الحيوانات الضخمة والافاعي والحشرات بانتظار ذلك المخلوق العجيب، الذي طالما حاولت ان تبيده فكان هو الاجدر بالبقاء.

لكن غزو الامازون يختلف كل الاختلاف عن الغزوات التي سبقته على القارة الاميركية. فعوض ان ينطلق الابيض المغامر من مبدأ اعتبار سكان المنطقة الاصليين اعداء له ومنازعين، صار يدرس مدى استفادة هؤلاء الاخوة في الانسانية من خطوته الجريئة، وكيفية اقناعهم بهذه الفائدة.

فادغال الامازون غنية بثروات معدنية ونفطية لا تقدّر بارقام. والزراعة الممكن تحقيقها وتنظيمها فيها، من شأنها ان تؤمن معيشة مئات الآلاف من البرازيليين، فضلاً عن الامكانات الصناعية الضخمة المتوقعة هناك. وهذا ينعكس ايجاباً على حياة الهنود الحمر، فتمتزج حضارة اليوم بعاداتهم وتقاليدهم.

هكذا بدأ شق طريق "ترانزا مازونيكا" المبتدئة من الشمال الشرقي للمحيط الاطلسي، والمنتهية على شواطىء المحيط الهادىء عبر غابة الامازون التي لن يعود اسمها "الجحيم الاخضر"، بعدما امضت كلّ هذه المدة معزولة عن حياة التمدن، التي عاشها عصرنا الحاضر.

والجرأة التي تتميز بها هذه الخطوة، تبدو مفاجئة نظراً الى ما عرفته المحاولات السابقة من خجل وتردد. فمن العام ١٨٧٢ حتى العام ١٩١٠، كانت منطقة الامازون لا تتصل بالغابة الا من وجهة واحدة، هي صناعة المطاط المستخرج من الاشجار.

ففي العام ١٨٧١ اخترع تشارلز غوديير طريقة جديدة لاستخراج المطاط، وكانت الطلبات على هذه المادة في تصاعد، الامر الذي جعل هذه الصناعة تزدهر داعياً المغامرين الى مزيد من التوغل في الغابات. وظلت غابة الامازون تستهوي الصناعيين حتى العام ١٩١٠، موعد ظهور منافسين للمنطقة في مالايا وسوماترا، وانخفاض اسعار المطاط.

امام هذه الظاهرة تقلص عدد الساعين الى المطاط، وهجرت المناطق التي كان الانسان قد اكتشفها في الامازون، لتعود اليها النباتات المتوحشة وحياة الادغال.

وفي العام ١٩٢٧ عاد الانتعاش الى هذه الصناعة في الامازون، مع مجيء شركة فورد للمحركات التي انشأت مركزاً اختبارياً لاستخراج المطاط وتصنيعه. وبلغ مجموع المساحة المستثمرة ما يزيد على ثلاثين الف كيلومتر مربع. لكن المحاولة فشلت، واضطرت الشركة بعد الحرب العالمية الثانية الى التخلي عن منشآتها واراضيها للدولة البرازيلية.

ان الكيلومتر الواحد الذي يتم شقه في الغابة اليوم، يعني اقتلاع ثلاثة آلاف شجرة ما عدا الشجيرات والاعشاب. وكلما تقدم العمال قليلاً، وصل مئات من السكان الراغبين في اتخاذ الغابة موطناً دائماً.

نتيجة لذلك، قامت جماعة من السكان الاصليين، معروفة باسم "الغوشو"، تحتج على تفريق عائلاتها بعضاً عن بعض، بحيث صار منزل العائلة الواحدة من "الغوشو" يبعد عن منزل الآخر بعشرات الكيلومترات. وكان التفسير الذي اعطي الى هذه الجماعة، ان وجود كل جماعة على حدة من شأنه ان يولّد في

المنطقة تجمعات صغيرة تمتاز بالعصبية، ولا يجمعها بجاراتها اي رابط.

فالمشرفون علي المشروع، يحاولون منذ البدء تجنب كل ما رواه التاريخ من قصص نشوء المجتمعات، ونشوء العلل معها.

لا يعني ذلك ان كل الهنود يعيشون على تقاليدهم القديمة. ويزاولون طبهم البدائي، ورقصاتهم التقليدية. فان عدداً كبيراً من الهنود اليوم يزاولون مختلف المهن والحرف والاعمال التجارية والفنية، ومنهم اطباء ومهندسون وباحثون اجتماعيون ورؤساء اقسام في المدارس والمعاهد والكليات.

وفي الجامعات يوجد عدد كبير من الطلبة والطالبات الهنديات، يتمتعون بقدر كبير من الذكاء ويحصلون على تقديرات عالية، مما يدلّ على استعدادهم للتأقلم والاخذ باسباب الحياة العصرية بسهولة ويسر.

في مدينة مونتريال (كندا) يوجد عدد كبير من الهنود، يزاولون واجباتهم اليومية ببساطة كأي كندي عادي، وبالرغم من التزام الهندي الاسلوب العصري، فانه لا يزال يعتز بهنديته ويسعى دائماً الي الحفاظ على تراثه، وتخليد اساطيره القديمة مخافة ان تنقرض. وهو ينتهز فرصة اجازة نهاية الاسبوع للتوجه الي مستعمرته القريبة لمزاولة رقصته التقليدية، ويظلّ يدور حول النيران الموقدة، بينما اصدقاؤه يلتقطون له فيلما سينمائيا يشاهدونه معاً في شقة عصرية، في احدى ضواحي مدينة مونتريال، بعد ايام قليلة.

وهناك محاولات متفرقة لاحياء التراث الهندي. فان عدداً من المدارس يعمد الي تشجيع الابحاث والدراسات البعيدة عن

المبالغة. ومحطات التلفزيون بدأت تهتم باذاعة البرامج الثقافية عن الهنود. كما تنظم الرحلات المختلفة لزيارة مستعمراتهم، والتعرف على الهندي في محيطه في جوّ من الصداقة والتقارب.

وهذا كله لم يمنع احد زعمائهم، في حديث تلفزيوني، من التهديد بأنه في حال عدم احترام الابيض للعهود المبرمة بين الطرفين، والتخلي عن محاولات اعتبار الهندي مواطناً من الدرجة الثانية، ان الهندي يشعر بأن واجبه نحو اسلافه وارضه ان يحمل السلاح للمقاومة والكفاح، حفاظاً على حقوقه الطبيعية.

"يوم البحر" في جزر اولاند

"إننا شعب واقعي. ولهذا تستمر الحياة كما ترى. وبالرغم من هذه الاجواء التي خلقتها الطبيعة، يمكن ان تقول إنها تشبه الحلم، ولكن عندما تملك الحلم نفسه، فانك واقعي جداً".

كان يقف على صخرة جرداء يغسلها البحر ليل نهار وهو يتحدث. انه احد سكان جزر اولاند (تقع في البلاد السكندنافية)، مديد القامة، وعيناه تتجهان الى هناك، تراقبان هذه المجموعة من اهل اولاند يحملون المشاعل، بثيابهم المزركشة، ويتجهون نحو البحر.

وعبر امتار قليلة تتناثر جزر عديدة، تزيد على ستة آلاف جزيرة، يحتفل سكانها كلّ عام "بيوم البحر". يرقصون ويغنون ثم لا تلبث ان تصل مجموعة اخرى الى المكان نفسه، ترتدي اقنعة غريبة تشبه رؤوس حيوانات غريبة. ومن بين هذه المجموعة تبرز فتاة، يحملها خمسة اشخاص، يقودهم شاب مقنع يحمل رمحاً مزخرفاً باصداف البحر، ثم تلقى الفتاة في البحر، ويسود صمت عميق، وتظهر الفتاة بعد برهة من تحت اقدام صخرة تشبه كهفاً، فيتعالى الصياح والصراخ ويبدأ

الرقص من جديد حول الفتاة، التي تجلس على صخرة تحدق في البحر.

إن الاحتفال على هذه الصورة، رمز الى عادات اهل اولاند في التاريخ السحيق، عندما كانوا يقدمون شخصاً الى البحر في كلّ عام. هذا المجهول الغامض الذي ليس له حدّ.

كان البحر احد رموز الجزيرة التي كان اهلها يعيشون على صيد حيواناته. وعن طريق الصيد عرفوا مغامرات هي جزء من مغامرات اجدادهم الفايكنغ، الذين ارعبوا بريطانيا وسواحل الشمال. وكانت سفن الصيد تصل الى حدود البحر ذلك المجهول، الذي كثيراً ما كان يغضب فيبتلع عدداً منهم، وعند الغضب، كان عليهم ان يقدموا له الاشخاص ليهدأ ويرضى. فهو المستبد الطاغي، يمتدّ سلطانه الى حيث اللانهاية.

وليس من قبيل الصدفة اذن ان يبقى هذا الرمز حياً في مثل هذه الاحتفالات السنوية، التي تنتهي عادة بزرع عمود مزخرف على شاطىء الجزيرة في ميناء مدينة "ماريهام"، وهي تعتبر مقر حكومة اولاند الرسمي.

لسكان هذه المدينة عادات وتقاليد غريبة، فعلى مقربة منها تقع المقبرة التي تعتبر اطرف المقابر في العالم، ففي كل قبر ينام قبطان يحمل امجاده الخاصة.

قد لا تجد قبراً واحداً يحمل غير لقب "قبطان" اذ ليس من اللياقة، على الاقل، ان يموت واحد من اهالي "ماريهام" ولا يكون شيئاً ما.

عرفت جزر اولاند عربياً هو الادريسي المؤرخ والجغرافي

الشهير، الذي زارها في اوائل القرن الثاني عشر، وقد شاهد الادريسي احدى هذه الاحتفالات الغربية مصادفة، فكتب عنها من دون ان يفهم مغزاها.

يقول "جوني هولمبرغ" مؤلف كتاب تاريخ جزر اولاند: إن اول من اتى على ذكر هذه الجزر هو الجغرافي العربي الادريسي الذي رأى المحاربين في ذرى "كولمار" احدى جزر اولاند وهم يحرسون هذه الجزر ويلقون بالمشاعل، واعتقد ان ذلك تحذير لاهل الجزيرة من خطر قادم عبر البحر".

واذا كانت اولاند قد تحولت الى جنان بفضل ما اضفته عليها الطبيعة من جمال آخاذ، فهي تسلم من المشادات والمشاحنات السياسية. اذ كانت الى زمن موضع نزاع بين فنلندا والسويد حتى انتهى هذا النزاع الى عصبة الامم، التي اقرت بتبعيتها الى فنلندا العام ١٩٢١، على ان تحتفظ بحيادها، ويتمتع اهالي اولاند، البالغ عددهم ٢٤ الفاً، بحكم ذاتي وبرلمان خاص.

يتكلم جميع السكان اللغة السويدية، لانهم سويديون اصلاً وثقافة، وهم احفاد السويديين الغزاة الذين احتلوا الجزر منذ حوالى خمسماية سنة. وتعتبر اولاند حالياً "الريفييرا" بالنسبة للسويديين، الذين يأتون اليها ليقضوا اشهر الصيف وعطل نهاية الاسبوع.

اثر النزاع السياسي على اهالي اولاند، فجعل منهم شعباً من اكثر الشعوب السكندينافية تعصباً لوطنيته، ويحتفظ كلّ اولندي في بيته بكتاب يحمل في صفحته الاولى: شجرة العائلة وصوراً فوتوغرافية لبيت اجداده القديم وبيته الحديث.

وبالرغم من تبعية اولاند السياسية لفنلندا، فهي تتمتع

بحكومة داخلية لها الحق في سنّ القوانين وفرض الضرائب التي تعود في النهاية الى خزينة حكومة فنلندا.

وفي اولاند مجلس نيابي يضم ثلاثين نائباً ينتخبون كلّ ثلاثة اعوام، وهم ينتخبون بدورهم حاكماً عاماً لاولاند.

وهناك حاكم آخر يمثل الحكومة الفنلندية، وتكاد سلطاته تكون رمزية وتنحصر هذه السلطة بالاشراف على دوائر الضرائب. ويفتتح هذا الحاكم البرلمان بالنيابة عن حكومته، وله الحق في ان يحلّ المجلس الذي له هو ايضاً سلطة التأثير في تعيين الحاكم نفسه.

للجوّ الرائع، والطبيعة الساحرة تأثير بالغ على عادات اهل اولاند وتقاليدهم، هذه التقاليد اوحت للسكان باساطير، اخذت كلّ جزيرة منها اسطورة استحالت مع الزمن الى رمز.

ولقلعة "ماريهام" قصة تروى: ماريهام حفيدة قيصر روسيا الكسندر، جاءت الى اولاند، يوم كانت فنلندا دوقية روسية. وقد احضرت الاميرة الحسناء معها بجعة سوداء كانت لا تفارقها ابداً.

وبينما كانت الاميرة على الشاطىء، جاء بحار شاب من احدى جزر اولاند، وطلب منها ان ترافقه على سفينته لترى جمال العالم، وعشقت الاميرة البحار، ودفعها حب المغامرة الى مغامرته، فاختفت معه ولم يعد احد يسمع عن مصيرها.

وبقيت البجعة ترود شواطىء الجزر بحثاً عن الاميرة، وترقص رقصات الابتهال الغريبة. ويقول اهل اولاند ان رقصة البجع التي تؤديها فتيات اولاند على الشاطىء، انما هي رمز لوفاء هذه البجعة التي كانت تحاول، من خلال رقصاتها، ان تعانق روح الاميرة في العدم.

وقلعة ماريهام التي عاشت فيها الاميرة قصة احلامها، تنتظر فارس البحر لكي يحملها الى المجهول قد اختفت كذلك، ولم يبق منها سوى مجموعة من الحجارة ومدفع ضخم. وذلك بعد ان دمرتها البوارج البريطانية في حربها مع روسيا. وامام هذه القلعة التي تعانق في صمتها اصوات البحر ونداء الجزر التي تمتد من حولها، رست سفينة الادريسي ذات يوم في القرن الثاني عشر.

حماسة الشعب الاولاندي الى ثقافته السويدية ولغته وتاريخه، تدفعه الى دعوة كلّ غريب لكي يقص عليه احلامه ومطامحه، وفي كل جزيرة دعوة للغريب لكي يقضي ليلة على الشاطىء يحلم فيها بالمستحيل.

وعندما تطوف بك الباخرة على هذه الجزر في طريقها الى هلسنكي او استوكهولم، تشاهد الاولانديين منهمكين بزراعة الارض والاعتناء بالاشجار، ذلك ان الزراعة والسياحة هما المصدران الرئيسيان للعيش على هذه الجزر.

تشبه هذه الجزر، في وضعها، امارة موناكو على شاطىء المتوسط، وهي، كانت امارة ايضاً في السابق، وحفيد ملكها، او اميرها يعمل في الصحافة.

واذا كان اهل اولاند قد احتفظوا باساطير اجدادهم واستخلصوا منها رموزاً لفرح الحياة، فقد ظلت هذه الجزر، عبر التاريخ، مصدراً لاساطير غريبة، وقد نقل الادريسي عنها بعضاً من هذه الاساطير.

واذا كان ما شاهده الادريسي حقيقة في ذلك الوقت، فانه الان اسطورة يتناقلها الاحفاد عن آبائهم واجدادهم، ويقف لزائر على الشاطىء يتطلع الى البحر الذي يضيء طوال اشهر

الصيف، اذ لا تكاد الشمس تفارقه سوى ساعتين في خلال الاربع والعشرين ساعة، امّا في الشتاء، فهو الظلام الدامس، حيث لا شمس في النهار او الليل، ومع ذلك تضحك جزر اولاند متباهية بجمالها، ويتضاحك اهلها فعلى ارضهم السلام، وفي حياتهم الفرح وفي اساطيرهم حكايات لتاريخ مضى

تايوان بلد الاعياد والمهرجانات

ليست تايوان اكثر من جزيرة يبلغ طولها ٣٩٤ كلم٢، يسكنها اقل من عشرين مليون نسمة. وتقع على حدود الصين، الفيليبين وكوريا الشمالية. وتتميز بعادات وتقاليد، ورثتها من الاجداد القدامى. ومن اهمها اليوم الوطني الذي يحتفلون فيه بمناسبة ازاحة حكم اباطرة "المانشو" في ١٠ تشرين الاول (اوكتوبر) من العام ١٩١١.

تكثر الاساطير والحكايات الشعبية فيها ومن اهم الحكايات التي وردت في الاساطير القديمة ان "التنانين" كانت منذ عهد بعيد تتواثب وهي ترقص وتغني مرحاً في مياه الشاطىء الصيني، وتقلب في صخب رمال القاع. ومن هذه الرمال المقتلعة اقامت التنانين جزيرة على شكل سمكة اسطورية ملونة، تستلقي في هدوء على مياه بحر الصين.

حكاية التنين والرقص والغناء، هي ابرز العروض التي يشهدها الزائر في خلال المهرجان الكرنفالي الكبير. يبدأ

العرض باقتراب التنين الرمزي الضخم بالوانه الزاهية محمولاً على الاعناق والاكتاف، يسيطر على الساحة بين انغام الموسيقى الصاخبة.

طول التنين البلاستيكي المنفوخ بالهواء لا يقل عن مائتي متر وهو يتحرك راقصاً صاخباً، ويحمل اطرافه اكثر من مائة من الراقصين في الملابس التقليدية يدورون ويقفزون، وهو يتلوّى بين صفوفهم بطريقة مثيرة، في رقصات غاية في الرقة والبراعة والتناسق والتناغم والجمال.

ومن فم التنين تنطلق نفثات دخانية متباينة الالوان، كأنها انطلاقات ألسنة اللهيب المستعر، يرسلها في خلال رقصته المجنونة الثائرة. ولا تهدأ ثورته الآ حين تحيط به مواكب الزهور التي تضم الفتيات اللواتي يرقصن في ازياء تمثل التنانين الصغيرة، وسط الورود والرياحين الزاهية الالوان.

وباستمرار العرض يتذكر الناس صورة التنين، كما نعرفها ونراها مرسومة او منحوتة في مختلف المعالم التاريخية، وفي رسوم الفخاريات الفنية وعلى جوانب الطائرات والفوانيس الورقية التي تنتشر في كلّ مكان.

اما في مهرجان الزهور والالوان فتتقدم فتيات في ازياء متباينة الالوان، وتنقسم الى عدة مجموعات، كلّ مجموعة بلون خاص، يحملن الورود او البالونات والاعلام او المراوح، ويتلاعبن بها في تشكيلات بديعة. ينتهي موكبهن بزهرات في زي الفراشات تتراقص اجنحتهن الحريرية المفتوحة ذات الالوان الزاهية. وتطلق آخر مجموعة منهن بالوناتها الملونة لتطير فتغطي سماء الساحة متراقصة هي الاخرى في تناغم وتنسيق غاية في الابداع.

ولان تايوان بلد الاعياد والمهرجانات، فان الاحتفالات تتكرر في المهرجان الغنائي الموسيقي الشعبي. ويشاهد السائح عروضاً استعراضية، تحتوي على الكثير من فنون المرح والتسلية.

بعض العروض تقدم العاباً تنكرية تمثيلية فكاهية، يشارك فيها الاطفال، من بينها مشاهد لمجموعة من الصغار، وقد صبغت وجوههم بخطوط ذات لون احمر زاه، لتماثل اشكالهم هيئة القرود في القصة الاسطورية القديمة "رحلة الى الغرب"، حيث يقدمون اعمالاً تمثل القوى الخارقة.

وضمن العروض تقدم رقصة الاسد الفولكلورية التقليدية. يقدمها رجال يدخلون في جسم لاسد رمزي، يؤدي كلّ منهم ببراعة تامة وتناسق حركات الاسد الحقيقية، حين يقرقع بفمه ويطبق اسنانه ويصدر الزئير والصيحات التي تثير اعجاب المشاهدين.

وينتهي الحفل بمشهد من اجمل المشاهد يؤديه صغار لا تتعدى اعمارهم الرابعة، يعرضون قصة الصيادين الذين جاءوا ينصبون شباكهم لاصطياد العصافير، ولكنها تتجمع وتتكتّل معا حتى توقع الصيادين في الشباك.

احتفال آخر له قيمته، هو احتفال اول السنه القمرية، في ذلك الوقت يتوقف كلّ شيء، فالاستعدادات قائمة في كلّ بيت، في الليلة الاخيرة من السنة المنتهية.

وفي خلال الايام السبعة يكون كلّ انسان مشغولاً بتنظيف البيت واعادة صباغته وتلوينه، وبانجاز كلّ المشتريات والاطعمة المطلوبة من السوق، وتزيين الغرف بالازهار والورود.

عند غروب شمس الليلة الاخيرة تجتمع العائلة كلها داخل البيت، بينما تكون جميع الابواب قد ختمت بالشمع والورق الاحمر لمنع ثروة العائلة من الهروب. وتبدأ المأدبة الكبيرة التي تكون قد اعدت خصيصاً لهذه المناسبة.

قبل تناول الطعام يحني كبير العائلة رأسه، ويتبعه الآخرون لتقديم تحية التكريم للاسلاف. وعندما ينتصف الليل تجري ازالة الاختام عن الابواب لاستقبال الآمال والتمنيات الطيبة للعام الجديد. ثم تنطلق الالعاب النارية لتغطي السماء وتظل مستمرة حتى الفجر. ذلك هو اليوم الوحيد من السنة الذي تخلو فيه جميع الشوارع من الناس، لوجودهم داخل البيوت، والذي ينتهي عادة بجلوس ربّ العائلة لتلقي تهاني جميع افرادها، ويتلقى الصغار منه هدايا العيد.

وثمة عيد آخر كانت تتعطل فيه الاعمال لاسبوع او اسبوعين، بمناسبة اكتمال القمر في اول شهور السنة، حيث يجري مهرجان الفوانيس الملوّنة التي تزين بها الشوارع والبيوت.

لا يكاد يخلو ايّ احتفال او مهرجان في تايوان من علاقة مباشرة او غير مباشرة مع اسطورة تروى. ومهرجان وسط الخريف يكاد يكون صاحب اكبر كمية من الاساطير الرومانسية، التي تروى عن القمر والطعام الرئيسي الذي تقدم في خلاله "كعكة القمر"، متباينة الاشكال، بعضها حلّو وبعضها مالح، ولكنها محشوة بالفواكه والجوز والبندق، والتذوق من كل صنف منها اجباري على الجميع.

في احتفالات الربيع تغلق جميع المحلات في تايوان لمدة

اسبوع، ويتمثل المهرجان التقليدي في تبادل الرسائل الحمراء المسماة "هونغ باو" وفيها هدايا نقدية للاصدقاء تتباين حسب تضمينات الحظ التي ترفق باوراق صغيرة. ولكن اسوأ ما يمكن ان يقع فيه احدهم هو ان يصله رقم ٤ ، فهو شؤم على صاحبه لأنه يمثل كلمة الموت.

اما مهرجان قوارب التنين فهو نوع آخر من الاحتفالات الشعبية في تايوان. يجري هذا المهرجان في اليوم الخامس من الشهر القمري الخامس. في ذلك اليوم تجري سباقات القوارب المزخرفة بالوان التنين، في الانهار التي تخترق مختلف المدن في تايوان.

انّ هذا الاحتفال يقام جرياً على تقليد قديم يرتبط باسطورة شعبية تحكي: انّ طالباً موهوباً اسمه "شويوان"، في القرن الثالث، لم يحظ بتكريم الامبراطور لمواهبه، فانطلق الى النهر حيث اغرق نفسه... واسرع الناس الى قواربهم يحاولون انقاذه وانتشاله ولكن عبثاً، اذ كان قد اختفى في اعماق المياه. وظلّ الناس كلّ سنة يستقلون القوارب ويتسابقون في الانهر في ذكرى تلك المناسبة.

ذات يوم ظهر "شويوان" في الحلم لاحد الفلاحين يستجدي طعاماً. من بعدها ظلّ الناس يلقون حبات الأرز في النهر من اجله. وبعد فترة ظهر "شو" في حلم آخر وهو يقول انّ الاسماك تلتهم الأرز الذي يلقى اليه، وطلب ان يلقى الأرز في لفافات من اوراق شجر الخيزران مربوطة بخيوط متينة.
وهكذا بدأ الناس يصنعون لفافات الأرز التي يسمونها "تزونغ تزي" ويلقونها في النهر، في مثل ذلك الوقت من كلّ عام، حيث تجري في الاحتفالات سباقات زوارق التنين النهري.

كذبة اول نيسان بين بريطانيا وفرنسا

اعتاد الناس، في كلّ انحاء العالم، على الكذب والتكاذب، في اول نيسان (ابريل) مزحاً ودعابة. وهي عادة قديمة جداً لم يعرف بالتحديد تاريخ ولادتها. ولكنها تطورت مع الايام وصارت من التقاليد المحببة التي تأتي، مرات صغيرة بيضاء، ومرات تأتي سمجة قاسية.

يقول احد كبار الفكاهيين الفرنسيين: "ان هذه العادة في طريقها الى الزوال، وان احفادنا قد يندهشون اذا حدثناهم عنها، لأنّها ربما تكون اختفت تماماً. فمنذ مائة سنة او اكثر كان الناس يتخذون مواقف الحذر والترقب، باقتراب الاول من نيسان (ابريل). وكانوا يضحكون في قرارة نفوسهم من الخدع التي يعدّونها.

غير أن الاجواء القائمة والمخيمة على العالم اليوم، نتيجة التضخم وارتفاع الاسعار والبطالة وغلاء المعيشة وغيرها، جعلت الناس يتخلّون عن اجواء المرح ويلتهون بمشاكلهم ومتاعبهم الحياتية. خصوصاً وان كذبة نيسان (ابريل) تتطلب خيالاً واسعاً ومهارة، وقد ذهب بعضهم الى اعتبارها من انواع الفنون القائمة تضحك العالم كلّه على حساب بعض

الابرياء".

لاول نيسان (ابريل) في التاريخ، جذور عميقة موغلة في القدم، لا يخلو الحديث عنها من بعض الطرافة والمتعة والفائدة. وقد تضاربت في اصلها الاقوال والروايات، ومنها ما يفيد بأن ملكة من ملكات بابل القديمة، امرت بان يكتب بعد موتها، على قبرها الذي اعدته في حياتها الى جانب باب المدينة، هذه العبارة: "يجد المحتاج في قبري هذا مالاً يسدّ به حاجته اذا فتحه في اول نيسان (ابريل)". ومرّت فترة طويلة من الزمن، ولم يقدم ايّ انسان على فتح هذا القبر، الى ان ظهر داريوس الفارسي، فأمر بفتح القبر، واذا به يجد في داخله رقاً من نحاس، وقد كتب عليه ما يلي:

"... ايها الداخل الى هذا القبر، انت رجل وقح طمّاع، عطش الى نهب المال، ولأجل اشباع نهمك اتيت تقلق راحتي في نومي الابدي، مغتنماً فرصة اول نيسان (ابريل). ولكن خاب ظنك وطاش سهمك، فلن تنال من قبري، الا نصيب الاحمق المعتوه".

وهناك من يعيد كذبة نيسان(ابريل) الى اصل هندي قديم جداً، وكانت تتم هذه الكذبة في خلال عيد يسمونه: "هولي" ويحتفلون فيه "بالانقلاب الربيعي"، ويمتدّ حتى آخر ايام آذار (مارس)، فاذا جاء اليوم التالي، وهو اول نيسان (ابريل) شيعوه بتبادل الهدايا التافهة، والمقصود بها التهكم والسخرية.

ولكنّ الرواية القريبة من الحقيقة تفيد، بأن هذا التقليد ولد في انكلترا في الفترة الواقعة ما بين القرنين العاشر والحادي عشر. وقصة ذلك انّ السنة في بعض البلدان الاوروبية كانت

تبدأ في ٢٥ آذار (مارس) حيث تنظم احتفالات ضخمة تستمر لمدة اسبوع، وتنتهي في اول نيسان (ابريل)، وكانت هذه الاحتفالات تقابل بالسخرية من قبل الفئات الاخرى التي كانت لا تعترف بـ ٢٥ آذار (مارس) كأول يوم من ايام السنة. وتعبر هذه الفئات عن استخفافها بهذه الاحتفالات في ارسال علب هدايا فارغة للمحتفلين، اوبارسال التهاني الطريفة التي تحتوي على عبارات مرحة مليئة بالمداعبة.

وفي العام ١٥٨٢ وضع غريغوري الثالث عشر فكرة التقويم الذي يبدأ السنة في اول كانون الثاني (يناير) وينهيها في آخر كانون الاول (ديسمبر). ولكن بقي تقليد اول نيسان (ابريل) محتفظاً بشبابه وقوته، وما كاد القرن الثامن عشر يسفر عن وجهه، حتى صار هذا التقليد شائعاً مألوفاً لدى كلّ الناس، وبعد ان كان مقتصراً على النبلاء والاشراف، وغيرهم من كبار القوم.

لم يعرف هذا التقليد في روسيا قبل العام ١٧١٩، زمن بطرس الاكبر، قيصر روسيا. فقد امر القيصر بصنع قبة عالية من خشب السنديان والقش، وطلاها بالزفت والشمع. ولما اصبح اول نيسان اشعل النار فيها، فاندلعت السنتها الى السماء، حتى توهم الناس ان المدينة تحترق، فتراكضت الجموع مذعورة في حين ان الجنود كانوا يصدونهم قائلين:

يا مجاذيب، اليوم اول نيسان (ابريل).

امّا في فرنسا، فقد عرفت كذبة نيسان (ابريل) او سمكة نيسان (ابريل) قبل العام ١٨٢٨، حين ارسل احد الشعراء قصيدة الى حبيبته اثبت فوقها عدة اشرطة حريرية ناعمة، ذات الوان مختلفة متباينة وهي على التوالي: اخضر، بني، وردي،

ازرق، ابيض، اسود، اصفر، وكتب تحت الاشرطة:

"اذا كان قلبك مشرقاً فارسلي اليّ الشريط الاخضر.

اما اذا كان قد شغل بغيري فارسلي اليّ الشريط البني.

ومن المحتمل ان الغرور قد اصابك فمللتني، فشريطي اذن هو الوردي.

اما اذا كان حبك مجرد سراب فارسلي اليّ الشريط الازرق.

واذا كانت نهاية حبنا بداية زواج، فانا ارى مستقبلي هو اللون الابيض.

اما اذا فقد الامل بي الى الابد، فابعثي اليّ بالشريط الاسود. واذا كان هناك من ينزعني من قلبك فاللون الكلاسيكي لذلك هو الاصفر.

واذا سألت من انا اجيبك:

الذكي جداً. وتستطيعين ان تعرفي ذلك من سرّ الاشرطة. ولكي لا تظنين انّي اسخر منك، فان اسمي هو "سمكة نيسان" (ابريل).

مع توالي الايام، صارت هذه الرسالة تقليداً بين الشباب والشابات في فرنسا، يتبادلونها في اول نيسان، لمعرفة حقيقة مشاعرهم تجاه بعضهم بعضاً.

والمفروض بعد استلام الرسالة ان ينزع المرسل اليه احد الاشرطة المذكورة، ويعيده داخل رسالة مغلقة الى المرسل، الذي يفهم حقيقة مشاعره نحوه من دلالة اللون.

وهناك من يزعم ان "سمكة نيسان" (ابريل) في فرنسا ترتقي الى لويس الثالث عشر ملك الفرنسيين، وكان قد سجن احد الامراء في مدينة نانسي، فافلت الامير من سجنه وقطع سابحاً مثل سمكة. وعند نجاته من "شبكة صياده" ارسل الى الملك

سمكة مع رسالة مؤرخة في اول نيسان (ابريل)، ويقول فيها "انّه تملص من يده تملص السمكة من الصنارة".

ولعلّ ابرز كذبة سمجة هي من ابتداع طلاب الطب في فرنسا. ففي اول نيسان (ابريل) من العام ١٨٨٥، دعا طلاب كلية الطب رفاقهم الى مأدبة كبرى، وفي نهايتها اعلن احد اصحاب الدعوة الصمت، وقال: رفاقي الاعزاء لقد قطعت اللحم الذي اكلتموه من الجثث التي كنتم تشرحونها..."

وهناك كذبة تشبهها، قام بها اميركي حين اعلن في احدى صحف نيويورك عن حاجته الى بعض الدولارات وعيّن عنوانه، فتلقى الآف الدولارات، ثم اتهم بالاحتيال، ولم تتم محاكمته باعتبار انه لم يعد بشيء.

والطريف في الامر ان كذبة نيسان (ابريل) لم يسلم منها حتى رؤساء الدول وكبار الشخصيات في العالم.

في اول نيسان (ابريل) من العام ١٩٦٢، نشرت الصحف العالمية الخبر التالي:

"...عزلوا خروتشوف من منصبه. وقد افاق اهالي موسكو في ساعة مبكرة على رنين اجراس الهاتف تحمل نبأ عزل خروتشوف، وإحالته الى المحكمة".

وكان المراسلون الاجانب من ضمن المستيقظين على النبأ نفسه، فاسرعوا على الفور الى دائرة البرقيات، ليبعثوا بالخبر الى الوكالات التي يمثلونها.

لم تذهب البرقيات الى الوكالات، وانما الى قصر الكرملين الذي اهتز للخبر وسارع الى نفيه فوراً، قبل ان يصدّق خروتشوف ويهرب من موسكو.

ولكنّ خروتشوف كان ابعد نظراً، فقد قال وهو يسمع الخبر:

"ان الذي اطلق كذبة نيسان (ابريل) هذه السنة، يشكو على ما يبدو من البطالة".

ولكنّ الذي اطلق كذبة نيسان (ابريل) العام ١٩٦٢، لم يكن مثلما قال خروتشوف، وانما كان يستشف حجب الغيب، وينظر الى المستقبل، فبعد هذا الحادث بسنتين اقيل خروتشوف من منصبه.

بريطانيا وتقاليد شرب الشاي

بالاضافة الى شهرتهم في تصنيع الشاي والاتجار به، فان الانكليز يعدون اكثر الناس استهلاكاً لهذه المادة. وتعود تجارة الشاي في بريطانيا الى ثلاثة قرون ومنذ ذلك الوقت والتقليد الانكليزي يلزم بتناول الشاي في وقت محدد وبطريقة تقليدية.

خلال العام ١٨٣٠ اصبحت مدينة لندن مركزاً رئيسياً لتجارة الشاي، وتأسست هيئة مبيعات الشاي بالمزاد في العام ١٨٣٤ في قلب حي السيتي، اي لندن القديمة، وبقيت هناك حتى العام ١٩٧١ حين تم نقلها الى بيت السر جون ليون.

ان سوق البيع بالمزاد لمادة الشاي في لندن هي الاكبر في العالم، مع العلم ان مزادات اخرى كبيرة تقام في اسواق الدول المنتجة، كاسواق كالكوتا في الهند وفي كولومبو في سري لانكا، وتقام مزادات اخرى في كينيا وملاوي وبنغلادش وجاكرتا.

وتعدّ بريطانيا اكبر بلد مستورد للشاي، اذ انها تبتاع كميات تفوق ما تبتاعه قارة اوروبا والولايات المتحدة الاميركية وكندا مجتمعة. وتبلغ نسبة تناول الشاي ٥٠ بالمئة بين جميع السوائل، و٧٠ بالمئة من المشروبات الساخنة المستهلكة في طول البلاد وعرضها. وتشكل نسبة تناول القهوة ٢٥ بالمئة، والقهوة المحضرة محلياً ٢ بالمئة فقط.

والمعلوم ان معظم الكميات الداخلة الى بريطانيا، تأتي عن طريق البيع بالمزاد، او عن طريق صفقات فردية. ويتم تصدير ما بين ١١ و ١٤ بالمئة من جميع كميات الشاي التي تدخل بريطانيا بعد تصنيعها وتوضيبها.

وبالنظر الى مكانة بريطانيا ومركزية لندن كسوق لجميع اصناف الشاي، فان الاسعار تتأثر الى حد بعيد بما يتقرر فيها، ويأتي الشاي اساساً من الهند وبنغلادش وسري لانكا وماليزيا وتايوان والصين واليابان وفيتنام وايران وتركيا وكينيا الجديدة وغينيا واوغندا وتنزانيا وملاوي وموريشوس وموزامبيق والكونغو وزئير ورواندا وبوروندا والارجنتين والبرازيل والاكوادور والبيرو وغيرها من البلدان.

يهتم الشارون بنوعية الاوراق، والكميات والاسعار والطعم ويتوقف اختيار طعم الشاي، على خبرة وتجارب هؤلاء الذين يتذوقون كلّ نوع منه، وخلطه وتوضيبه، مع حفظ خصائص كل نوع مهما قدم الزمن.

يتميز هذا النفر من الخبراء بحساسية اذواقهم وخبرتهم بحيث يحدد الواحد منهم الحقل الذي جاءت الاوراق منه، والبلد، والوقت الذي يتم فيه القطاف.

وتختلف الوان ورائحة ومذاق اوراق الشاي من موسم الى آخر، ويبقى على الخبراء تطويرها لتناسب الاذواق الكثيرة.

تقوم اسواق المبيع بالمزاد في لندن كل يوم اثنين في قاعة المزاد الرائعة في مركز الشاي. ويبدأ الرجل المسؤول عن المزاد بطرح سعر ويزاد عليه بمعدل نصف بنس لكلّ كيلوغرام واحد، وتكون الكمية المطروحة بحدود ١٠٠ الى ٣٠٠ كيلوغرام. ويتفق صغار السماسرة فيما بينهم لاقتسام هذه

الكمية، وهكذا يتاح للجميع امكانية الحصول على ما يريدون.

ومن التقاليد المرعية داخل القاعة الا يرتفع صوت، وان لا تأخذ الحماسة بالحضور، وعادة لا يزيد عددهم عن ٥٠ الى ٦٠ شخصاً، ويتم البيع عن طريق الوعد الذي ينفذ دائماً.

يقول احد باعة المزاد انه يبيع ما معدله مئة كيلوغرام من الشاي في الدقيقة، وانه استطاع بيع ١٢٥٠٠ طن من الشاي في خلال السنوات الاخيرة.

بعد وضع الشاي في اكياس خاصة، لوحظ ان الهدر قد خفّ كثيراً. وكان مبدأ اختبار الطعم في الماضي يتوقف على ذوق من يتذوقه من خبراء الشركة، غير ان سهولة المواصلات حالياً، اتاحت لهؤلاء، زيارة الاسواق الخارجية والوقوف على اذواق الزبائن.

واكتشف ان الانكليز يفضلون الشاي الحاد واللون الداكن، يشاركهم الاوستراليون في ذلك، بينما يفضل الالمان الشاي الخفيف، ويتحول الاسكندينافيون من القهوة الى الشاي من دون اضافة الحليب اليه، بل اضافة الليمون الحامض، في حين يتناول ٧٠ بالمئة من الاميركيين الشاي المجلد، اي البارد، ومن الملاحظ ان زبائن الشرق الاوسط يختارون اجود اصناف الشاي.

الخردل: صناعة وقوانين

تعتبر مدينة "ديجون" في فرنسا مدينة الخردل، لانها صنعته وتاجرت به منذ اقدم العصور، اذ استهلك دوق بيرغانديا، وهي الدولة التي كانت ديجون عاصمتها، قبل ان تُضم الى فرنسا، في خلال مأدبة اقامها لابن عمه ملك فرنسا في العام ١٣٣٦، كمية كبيرة من الخردل.

لذلك اصدروا القوانين في العام ١٣٩٠، والتي تحدد وتنظم صناعته وتفرض ان يصنع من البذور الجيدة والخلّ والملح من دون اضافة ايّ شيء آخر.

بسبب اهمية الخردل في حياة ديجون، أنشىء متحف سمي "متحف الخردل" في العام ١٩٨٨. ويتبين من خلال الوثائق الموجودة في هذا المتحف أنّ الخردل زرع في البدء في فلسطين وكان رمزاً للخصوبة والنمو السريع. ومن فلسطين انتقلت النبتة الى مصر، حيث تعرف عليها الاغريق في اثناء حكمهم لمصر، ونقلوها بدورهم الى فرنسا.

اول من ذكر صلصة الخردل هو المؤرخ الروماني بلايني، معتبراً ان اصل الاسم لاتيني.

يعود الفضل الى اهل ديجون، في جعلها المركز الاول في

صناعة الخردل، من بين سائر المدن الفرنسية، بسبب قدرتهم على الاستفادة من الفرص المتاحة لهم، اذ وفّروا كل ما يلزم لصناعته، باحضارهم الملح من جبال جورا القريبة، وزراعة الخردل في وادي السون، حيث تتوافر الشمس والرطوبة العالية اللازمتين له.

لكنّ الشهرة التي نالتها مدينة ديجون في صناعة الخردل، يعود الفضل فيها الى احد سكانها ويدعى جان نيغون، الذي استعاض عن الخلّ في العام ١٧٥٢ بعصير الحامض.

اما عائلة فالوا التي حكمت الدوقية الواقعة وسط فرنسا من العام ١٣٦٤ حتى العام ١٤٧٧، فكانوا من عشاق الصيد وأكل لحوم الطرائد التي يناسبها الخردل، وبلغ من حبهم لخردل ديجون انهم كانوا يحملون كمية منه معهم عند قيامهم بايّة رحلة صيد.

سنت القوانين لتنظيم صناعة الخردل، منها أنّه لم يكن يسمح للشخص بافتتاح محل لصنع الخردل وبيعه، قبل اكماله فترة تدريب لا تقلّ عن ثلاث سنوات على يد خبير قديم، وهذا بدوره لا يسمح له بافتتاح اكثر من محل، او تدريب اكثر من شخص واحد في الوقت نفسه.

انتشرت مطاحن الخردل الصغيرة في المنازل في القرن الرابع عشر، وكانت ربة البيت تعدّه طازجاً عند الحاجة اليه. بعد ذلك ظهر الطحانون المتخصصون، ومن القوانين الطريفة التي سنها الحكام انذاك، اعطاء مكافأة مميزة لكل طحان اذا سالت دموعه في اثناء الطحن، لاعتقادهم ان ذلك يعني ان طحنه للخردل كان اكثر نعومة من غيره.

بعد تكاثر الخردل في مدينة ديجون، ظهر الباعة

المتجولون، وهذه الظاهرة بقيت مستمرة حتى اوائل هذا القرن، واصدر حكام ديجون قوانين خاصة بنظافة ملابس هؤلاء الباعة.

وللتعرف على حياة وتاريخ حكام مدينة ديجون، لا بدّ من القيام بجولة على متحف الشمع او زيارة قصرهم الذي يشكل اليوم قلب مدينة ديجون، ويضم مطبخهم الشهير المؤلف من ستة مواقد، بالاضافة الى العديد من الادوات التي يحتاجها الانسان في اثناء طعامه، والتي تكفي لاكثر من مائتي شخص.

في كل عام يقام في ديجون مهرجان لقطاف الخردل في نهاية شهر آب (اغسطس) وتشترك فيه فرق من كل انحاء العالم. ويتضمن الكثير من العادات والتقاليد الطريفة.

الرقص والعادات

احتلّ الرقص في الاونة الاخيرة مكاناً مرموقاً بين كافة الفنون، لا بل اصبح في الطليعة، عشاقه كثر، وبامكان الراقصين تقديم اهم الاعمال الادبية والمسرحية من خلال لوحات فنية جميلة.

بدأ الرقص في العصور البدائية للانسان، فكان احد اشكال التعبير عن المشاعر. ثم ادخل على الاحتفالات والمهرجانات عند الشعوب القديمة. عرفته مصر الفرعونية، وبابل وبلاد الفرس والهند والصين. وكان اليونان يولونه اهتماماً بالغاً. ومن المرجح ان الرقص بدأ قبل الموسيقى من الحركة الفطرية والانفعالات.

وكان الرقص عند اليونان القدماء يعتبر هدية، وينطبق كذلك على المعيار الجمالي للتوافق والقوة. والواقع، انه بمثابة اعداد جيد للتدريبات العسكرية، ونظاماً رياضياً رائعاً.

وكان افلاطون يرى فيه جزءاً لا يتجزأ من التمرينات الرياضية، مثله في ذلك كمثل المصارعة، اذ ان الهدف الاساسي منه، هو المحافظة على صحة الجسم، واكتساب خفة الحركة والمحافظة على الجمال.

ومنذ العصور الاولى من الحضارة الهيلينية عرف الرقص مكانة عظيمة، كما تشهد بذلك الاشعار السومرية. كما انه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالشعر والموسيقى، وكان الشعراء يهتمون كثيراً بكل ما يتعلق بالرقص. وقد قدم سوفوكليس المثال العملي على ذلك بنفسه. عندما ادّى رقصة توزيكا.

كانت ايقاعات الرقص اليوناني، تفرق على ما يبدو بين نوعين: الرقص الاحتفالي والرقص الرياضي.

اما النوع الثاني، الذي كان يحتل مكانة اكبر، وكان الهدف منه، تنمية القوة البدنية وخفة الحركة للشباب، لاعدادهم للحرب.

وكانت تلك هي كما يبدو، وبصفة خاصة، حالة بيريا الشهيرة، التي عرفت قبل هوميروس، كانت ترقص بمصاحبة الناي على توقيعات خفيفة وحيّة، لا تزال بعض هذه العناصر موجودة حتى اليوم في رقصات جبال تيساليا ومقدونيا.

وكانت البيريا تعبيراً عن المعركة، تتخلل مراحلها المتعاقبة حركات تمثل الهجوم، والدفاع، وصدمات السلاح، وتنتهي بابتهاج النصر. وكان التعبير عن كل ذلك يتم بخطوات قافزة وجارية، وبحركات التفافية وتقهقرية، وكما هي الحال في كثير من الرقصات اليونانية، وكانت حركات الايدي، تفصح عن العواطف التي تحرك الراقص، مصحوبة بتعبيرات ايمائية مألوفة. كما كانت بعض الادوات تلعب دوراً هاماً في الرقصات الهيلينية وبصفة خاصة الاقنعة. غير ان اليونانيين كانوا يعرفون رقصات أخرى عديدة.

وبعكس المكانة التي كان يحتلها الرقص عند اليونانيين، فانه لم يلق اهتماماً كبيراً في روما القديمة. كان الرومان اولئك

الشعب المحارب، يعتبرون الرقص وسيلة ترفيهية، في المرتبة الثانية بعد الاستعراضات والمنوعات التي كانت تقدم لهم، مثل العاب السيرك، السباقات، العروض المسرحية، المباريات الادبية والموسيقية. وللتدليل على ذلك يكفي ان نستعرض رأي شيشرون الذي كان يقول: "ان الرجل الرزين لا يتدانى الى الرقص".

وعندما اتضحت الغاية من الرقص، صنف الى: رقص ترفيهي ورقص شعبي، واتخذه ملوك فرنسا وسيلة لاحياء حفلاتهم في القصور وتكريماً لضيوفهم.

في القرن الخامس عشر وضع دومينيكو دا بياسنترا اول كتاب عن التوقيعات الراقصة بعنوان: "فن الحركات والرقص التوقيعي". وبعد فترة قصيرة اهدى ابريو بحثاً في الرقص الى دوق ميلانو، وصف فيه ٥٠ رقصة من تصميمه، وسرعان ما انتشرت الرقصات الجديدة التي اعجب بها الملك فرنسوا الاول وحاول نقلها الى فرنسا، لتنال هناك الاعجاب من الطبقة المثقفة.

اما انكلترا فعرفت نوعاً آخر من الرقص عرف باسم "القناع"، وهوتعبير جسماني نحو التمثيل الايمائي، اكثر من اتجاهه نحو الرقص المعروف.

العام ١٦٦٠ انشأ لويس الرابع عشر الاكاديمية الملكية للرقص، وكانت اولى الاعمال "انتصار الحب".

بعد ذلك ادخلت تعديلات كثيرة على الطرق الايقاعية، ونظراً لتطور الموسيقى، استطاع الرقص ان يدخل كل المجالات حتى ان معظم الفنانين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

خصصوا اكثر اعمالهم لتقديم القطع الموسيقية المناسبة للرقص.

برزت المازوركا، الفالس، التانغو، اضافة الى الرقصات الشعبية التي بقيت محافظة على طابع معين، يتأثر بالتقاليد والعادات الموروثة من العصور الغابرة.

ومع مطلع القرن الحالي بدأ الرقص يأخذ طريقاً الى الخطوات الثابتة في تاريخه، وقد كثرت المدارس والاتجاهات الفنية التي خلقت موجات فنية عاصفة، اجتاحت اكثر العالم المتمدن.

يوم الوشم

رجال الاطفاء في مدينة طوكيو اليابان، يحتفلون في اليوم الاول من شهر تشرين الاول (اكتوبر) من كل عام بعيد "الوشم" حيث يجددون وعدهم باستمرار هذا التقليد الشعبي، الذي يعود تاريخه الى ايام كانت تعرف طوكيو باسم "بيدو".

في ذلك الوقت كانت منازل "بيدو" مصنوعة من مواد خشبية عرضة للحريق. وكان لرجال الاطفاء الدور الاساسي في حماية الاحياء التي يصل عددها الى ٨٠٨، وتتألف منها المدينة، وعمدوا الى اختيار حيوانات عرفت بالقوة والاندفاع مثل: الاسد، النمر، الديك، النسر، العقاب وغيرها. فوشموها على اجسادهم تشبيها لهذه الرموز، وليتمايزوا عن بقية الناس في المدينة.

لم تقتصر هذه العادة على رجال الاطفاء وحدهم، وسرعان ما انتشرت بين صفوف الناس وراحوا يتخيلون صوراً متعددة الاشكال والالوان لطبعها على اجسامهم، فانتقلت عندئذ هذه العادة الى الفنانين والمفكرين.

اشتهر بهذه العادة استاذ كبير، رفع طريقة الوشم الى مصاف الفن، اذ كان يفرض على الشخص الذي يرغب بتعلّم

هذه العادة، ان لا يكرر رسمة نفذها على جسم محب للوشم، بل عليه ان يبتكر رسوماً جديدة، واستطاع هذا الاستاذ ان يطبع على اجسام الناس رسوماً مختلفة لاحتفالات التنجيم، والحيوانات وورق اللعب، ومشاهد الصيد، والاحتفالات، وصور نساء وزهر وزخرفات.

طريقة الوشم هذه، ما لبثت ان انتقلت الى مختلف انحاء العالم، وبالتحديد الى ولاية تكساس في الولايات المتحدة الاميركية.

احد دارسي هذا الفن ويدعى "الن غوفنار" يقول"ان الرسوم اليابانية المعقدة المحفورة على الواح الخشب هي الموضة المسيطرة في موجة الوشم الجديد.

ويضيف: يشهد هذا الفن اليوم شعبية تتعدى اعتبارات العمر والمركز الاجتماعي. وغوفنار (٤٨ سنة) هو من سكان مدينة بوسطن، درس فن الوشم الاميركي مدة ٧ سنوات وانصرف الى الاعداد لنيل الدكتوراه في الفنون والعلوم الانسانية من جامعة تكساس في دالاس.

يعتبر غوفنار، ان ادهاردي، من سان فرانسيسكو هو زعيم حركة الوشم، واليه يعود الفضل في تحويله الى فن جميل. وتتناول الصور والرسوم التي يقوم هاردي بوشمها على الاجسام مشاهد عن محاربي الساموراي والتنين.

جاء في دراسة نشرت في الولايات المتحدة الاميركية: ان الوشم هو من الفنون البدائية، وليس فناً جديداً معاصراً. على الرغم من التطور التقني الذي ادخل اليه، ويرجع تاريخه الى عصور ما قبل التاريخ. ولا تزال توجد في بعض متاحف

اميركا واوروبا كل وسائل الوشم التي كانت تستعملها الشعوب البدائية.

اما علاقة غوفنار بالوشم فقد بدأت في العام ١٩٧٣، في اثناء دراسته في جامعة اوهايو، وعلى اثر زيارته لمحل في قلب مدينة كولامبوس، صاحبه "ليونارد سانت كلير" تخصص بهذا الفن.

وسرعان ماتشأت بينهما صداقة متينة، وراح ليونارد الملقب "بستوني" يلقنه مبادىء هذا الفن.

في وقت لاحق، كتب "الن غوفنار" دراسة عن ستوني للجامعة، ما لبث ان حولها الى كتاب بعنوان: "ستوني يعرفها: الحياة كفنان وشم". وطبعه على مطبعة كنتاكي. إلا ان ستوني لم يره، اذ توفي قبل صدوره عن ٦٧ سنة، بعد ان قضى ١٥ سنة من عمره في ممارسة فن الوشم.

ويقول غوفنار ان ما جذبه الى الوشم هو اكتشافه ان هذا الفن لم يكن كما وصفه الناس، وانه صمم على اظهاره كفن شعبي، وكأحد الفنون الجميلة على الرغم من المقالات السيئة والدراسات التي كتبت عنه.

حصل غوفنار على درجة الماجستير من جامعة تكساس العام ١٩٧٥، ثم انصرف الى البحث عن فناني الوشم في الولايات المتحدة الاميركية، فزار ثلاثين محترفاً للوشم في ١٧ مدينة، وكتب مقالات عديدة عنهم.

يقول غوفنار ان الرسوم الوشمية الجديدة مختلفة اختلافاً كبيراً عن تلك التي كان يرسمها ستوني، وان الطابع الغالب عليها حالياً هو الرسوم اليابانية المنحوتة على الخشب، والتي تعود الى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

يضيف: للوشم في اليابان مميزات مختلفة تماماً... فالرسوم تركز على التناسق والاستمرارية والتطابق مع انحناءات الجسم. اما الرسوم الغربية ففي غالبيتها مجموعة من الرسوم المضمومة الى بعضها بعضاً بصورة فوضوية ينقصها الموضوع الرئيس الموحد.

تبرعت المؤسسة الوطنية للفنون بتكاليف اعداد فيلم وثائقي عن "مدرسة الوشم القديمة". والف غوفنار ايضاً رواية بعنوان "الموشومون". كما انه عمل على اعداد فيلمين عن فن الوشم ولديه مشاريع اخرى لاجراء ابحاث عن وضع الوشم في الثقافة والمعاني التي يحملها.

تجدر الاشارة الى ان غوفنار لا يحمل اي وشم على جسمه، ولكنه يقول ان ذلك لا يعني انه سيبقى الى الابد كذلك "ليس لدي اي اعتراض على وشمي. وعندما اقرر رسم جسمي بالوشم، اريد ان اتأكد من ان ما سأحصل عليه سيكون جميلاً ويحمل المعاني الكثيرة".

قديما كان الملك ادوار السابع يحمل على زنده الايمن وشماً يمثل تنيناً ومرساة. اما الملك جورج الخامس، فحمل وشماً يمثل مركباً شراعياً، والملك جورج السادس حمل وشماً يمثل صورة مرساة كزند جده. ويعتبر المؤرخون ان المجتمع البريطاني الراقي كان ينظر الى الوشم نظرة اكبار واعجاب.

اعتقد البعض ان الوشم كان من التقاليد البريطانية اذ كان الملوك والعظماء يتزينون به، مع العلم ان البريطانيين اقتبسوا هذه العادة من اسوج. ويقال ان الملك برنادون حمل وشمين اثنين: الموت للطغاة على زنده الايمن، والاخوة على زنده الايسر.

ومن المشاهير الموشومين في العالم: ستالين، ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني، الرئيس الاميركي الراحل جون كينيدي وملك الدانمارك كريستيان.

اما في روسيا، فلم يعرف الوشم إلا من خلال القياصرة. فالقيصرة كاترين كانت تحمل وشماً هو آية فنية. اما القيصر نقولا الثاني، فقد وشم صدره في صباه بصورة سيف ولما تزوج من الكسندرا التي عرفت بقسوتها وجبروتها، حاول التخلص من هذا الوشم فلم يستطع.

المحللون النفسيون حللوا ظاهرة الوشم منذ القديم حتى اليوم، واستطاعوا التأكيد من خلال دراساتهم ان معظم الذين يقدمون على وشم اجسامهم، انما يفعلون ذلك في لحظات اضطراب وقلق او حبّ التقليد.

لكن هذا الفن يسير في طريق الزوال، كما يقول الخبير الفرنسي جاك ديلارد، ويعزو ذلك الى انخفاض نسبة الهواة في مختلف انحاء العالم

المصادر والمراجع:

مجلة الشرق الاوسط.

مجلة سيدتي.

العربي: سليمان مظهر.

الاسبوع العربي: محمد سعيد الجنيدي.

ملحق النهار: فؤاد شاكر.

مجلة صدى الارز: جوزف ابي ضاهر.

مجلة بشاريا.

فهرس

لكل شعب من شعوب الارض تقاليده وعاداته تميزه عن باقي غيره من الشعوب، وكثيرا" ما تكون هذه العادات وليدة حكايات شعبية، او اساطير يتناقلها الاحفاد عن الاجداد، ويتمسكون بها خوفا" من ضياعها في متاهات التقدم والحضارة.

التوزيع :
مكتبة الشوافي
الرياض العليا - شارع الثلاثين
هاتف : ٤٦٢٢٦٦٧/ ٤٦٢٢٦٣٠